أعلام الفقهاء والمحدثين

داود بن نصير الطائي

الفقيه الزاهد

ت ١٦٢هـ / ٧٧٩م

دكتور عصام محمد الحاج علي
دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي
أستاذ مساعد بكلية الآداب في الجامعة اللبنانية

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣-٨٦٨٠٥١-٦٠٢١٣٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٦٠٢١٣٣/٩٦١١/٠٠

الإهداء

إلى الإمام الجليل، الذي وهب حياته للعلم والعبادة؛ الفقيه الزاهد داود بن نُصَير الطّائي تكريماً لذكراه الخالدة...

* * *

إلى رجل الفلسفة والتاريخ والفن؛ أستاذي النبيل الدكتور سامي نسيب مكارم عربون تقدير ووفاء...

* * *

إلى الغالي؛ أخي وصديق عمري، ورفيق دربي، الأستاذ وسيم الحاج علي...

* * *

تحية حبّ وإجلال

د. عصام

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر الفقيه الزاهد داود بن نُصَير الطّائي واحداً من الشخصيات التي تعرّضتُ لدراستها في سلسلة «أعلام الفقهاء والمحدّثين» والتي أنجزت منها حتى الآن شخصية «الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك» و«الإمام سفيان بن سعيد الثّوري» و«الإمام شُعبة بن الحجّاج الأزدي» و«الإمام سفيان بن عُيينة محدّث الحرم المكّي».

وقد اخترت، هذه المرة الإمام داود الطائي، بعدما وقعتُ في بعض المصادر الأصيلة على مَعْلُومة تفيد أن الرجل كان مُلِمّاً بمعظم علوم عصره، فإلى جانب حفظه للقرآن الكريم، وتعمّقه بسُنّة رسول الله (ﷺ)، فقد كان عالِماً بالآثار (الحديث)، والفقه، والنحو، والشعر، وأيام الناس، وفوق ذلك، فهو متقدّم على غيره في تلك العلوم، وبخاصة علم الفقه الذي أخذه عن الإمام أبي حنيفة.

ومما زاد في تصميمي على هذا البحث؛ أن الطّائي زهد بكل شيء، وترك مجده العلمي، وتخلّى للعبادة وأقبل على شأنه

حتى ساد أهل زمانه، وهكذا أثبت الرجل على أنه في طليعة الرّكب دائماً، فهو في حلقات العلم رأساً، وهو في الزهد والعبارة سيّداً.

وفوق ذلك؛ مما يشرّف داود الطّائي ويجعله موضوع دراسة؛ تلك المكانة التي تبوّأها بين أقرانه وسائر العلماء، وقد ترجم كل ذلك بأقوال تليق به وتُزَكّيه، فكان الإمام سفيان الثّوري يقول فيه: «أبصر داود أمره»، وقال الإمام عبد الله بن المبارك: «هل الأمر إلاّ ما كان عليه داود»، وهو بنظر عبد الله بن داود يوزن أهل الأرض جميعاً، فقال: «لو أن داود وزن بأهل الأرض لوزنهم فضلاً». وبرأي أحد النقّاد أن داود لا يقلّ عن الأولياء الصالحين الذين ورد ذِكرهم في القرآن الكريم، فقال: «لو كان داود الطّائي في الأمم الماضية لقصَّ الله علينا من خبره».

إن تلك المواقف والدوافع؛ تؤهّل داود الطّائي لأن يكون واحداً ممّن يجدر أن تُجمَع أخباره وتُعرَض سيرته، وتُحَلّل وتُناقَش مواقفه الدينية والاجتماعية والسياسية، والذي يعزّز هذا الاتجاه؛ أن المكتبة العربية والإسلامية تفتقر إلى دراسة متخصّصة تتناول سيرة هذا الإمام الفذّ.

من هذه الزاوية؛ تبرز أهمية هذا البحث الذي يهدف إلى تسليط الأضواء على جوهر شخصية داود الطّائي، وعلى الظروف التي اضطرته لأن يترك ساحة الشرف، ويختار العزلة عن طِيب خاطر. كما يهدف إلى إظهار موقفه من القضايا الإنسانية والسياسية التي عصفت بالمجتمع الإسلامي، ومحاولاته الجادّة لوضع الدواء

على مَكمَن الدّاء، وذلك بحسب طاقاته وقدراته الجسدية والنفسية والمالية.

وبعد؛ فإن هذه الدراسة تتضمّن مقدمة وأربعة فصول، بالإضافة إلى خاتمة، وملحق بأبرز أحاديث داود، وثَبْت للمصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات. وقد تناولت المقدمة: دوافع اختيار البحث وأهميته وأهدافه، وانتهت بعرض شامل للخطة المعتمدة.

والفصل الأول؛ يتضمن دراسة الأوضاع السياسية في مدينة الكوفة منذ تأسيسها، وحتى وفاة داود الطّائي، والغاية منه الإحاطة بالوضع العامّ الذي كان سائداً آنذاك؛ لندرك مدى تأثير ذلك في شخصية داود الطّائي، وما ترتّب عليه من تغييرٍ واضح لمسيرته في الحياة وتركه حلقات العلم، واختياره العُزلة هرباً من الفساد وأهله، ومن السياسة والسياسيين؛ لِما في ذلك من مخاطر بسبب بطانة السوء ومزاجيّة رجال الحكم.

وأما الفصل الثاني؛ فيهتمّ بعرض شامل لأبرز المزايا التي عُرِفَ بها داود الطّائي، ويأتي في طليعتها شغفه بالعلوم وإقباله على حلقات شيوخه، وتخصّصه بفقه الإمام أبي حنيفة. ثم يتناول مكانته الفكرية، وتعدّد اختصاصاته، وإقبال طلاّب العلم لسماعه والأخذ عنه والاستفادة من الفتاوى التي يعالج من خلالها المسائل الشائكة.

ويتناول القسم الثاني؛ قضية اعتزاله لحلقات العلم وفراره من الناس، فيلحظ دوافع عُزلته، وفلسفته في ذلك، وامتناعه عن استقبال الناس حتى العلماء منهم، ويشير أخيراً إلى رفضه، وبشكل قاطع، الإجابة على تساؤلات قاصِدِيه، دون الاكتراث بقضية تقديم المساعدة لهم، أو حلحلة مشاكلهم الدينية المعقّدة، أو الامتثال لجوهر الدين وإرشاد الناس إلى الطريق الصحيح، ولعلّ ذلك يعود إلى أن المجتمع أوصله إلى طريق مسدود؛ بحيث لم يعد يؤثّر في أبنائه وعظ وإرشاد أو فتوى صالحة.

وأما الفصل الثالث؛ فيبحث في حياته الدينية، بما في ذلك عبادته وتقواه وزهده وورعه، فيعرض لمفهوم العبادة عند داود، ويعطي صورة واقعية عن صلاته وصومه وتفكّره ومُناجاته، ومدى تعلّقه بالقرآن الكريم. ثم ينتقل إلى زهده وورعه، فيبيّن فلسفته في الزهد في أقوال وحِكَم مستقّاة من واقع الحياة، وفي الجانب العملي يعرض أمثلة عن زهده في المأكل والمشرب والملبس والعمارة والزواج وما إلى ذلك من ضرورات حياتية، ويتناول أخيراً ورع داود المتمثّل في تمنّعه عن الاستفادة حتى من الأمور التي أحلّها الله عزّ وجلّ، بما في ذلك، الإرث والتجارة والهدية. وكلّها تُظهِر أن الرجل كان مقلّلاً على نفسه حتى أصبح مضرب الأمثال وقدوة للآخرين.

ويعالج الفصل الرابع؛ آخر نشاطات داود الطّائي ونهايته، ويتضمن هذا الفصل محورين، يبحث الأول في نشاطه الاجتماعي

والسياسي، وهو ذو شقين، الشقّ الأول اجتماعي بما فيه كرم داود، ومبدأ تعامله مع الآخرين ومدى تأثيره فيهم، ويخلص بعرض سريع لأهم أقواله ومواعظه ووصاياه. والشقّ الثاني سياسي؛ ويتناول مبدأ علاقته بوجهاء القوم من خلفاء وأمراء وحكّام عباسيين، رفض بإصرار الاختلاط بهم وتولّي مناصبهم وأخذ هِباتهم.

وأما المحور الثاني؛ فيعرض نهاية داود الطّائي ومكانته بشهادة مُعاصِريه من الفقهاء والمحدّثين، وهو يشمل وفاته ورثاء العلماء له، ثم يتحدّث عن رُؤى الناس له، وثناء الأئمة عليه، وينتهي بتقويم الرجل الذي عاش ستّة عقود؛ مُفعَمة بالعبادة والإخلاص ونكران الذات.

وأخيراً؛ جاءت الخاتمة ملخصة لأهم الصعوبات التي اعترت هذه الدراسة، كما ساهمت في الدفاع عن عُزلة داود التى كانت نتيجة للظروف المحيطة به، مما ساعد في إصدار الحكم على سيرته ونهجه في الحياة، وخَلُصَت إلى تحمّل مسؤولية متابعة البحث في تاريخ داود الطّائي حتى لا يفوتنا خبر من أخباره، وإن كان الأمل في ذلك ضعيفاً جداً؛ خصوصاً وأنني قد رجعت إلى العديد من المصادر الأصيلة والتي قاربت على السبعين مصدراً. ولا أرى ضرورة لذكرها هنا لأنني أودعتها مفصّلة في نهاية هذا البحث.

ومُجمَل القول؛ إنني أضع بين يدي القارىء هذه الدراسة المتواضعة آملاً أن أكون قد تمكنت بها من معالجة جوانب مهمة

من شخصية داود بن نصير الطّائي، كما أرجو أن تكون هذه الدراسة جديرة باحتلال مكـانتها في المكتبـة العربيـة.

ويبقى الله وحده وليّ التوفيق.

دكتور عصام محمد الحاجّ علي
النبطية ـ جنوب لبنان
١٠ ربيع الثاني ١٤١٤
٢٥ أيلول ١٩٩٣

الفصل الأول

الأوضاع السياسية في مدينة الكوفة منذ تأسيسها وحتى وفاة الإمام داود الطّائي

وُلِدَ الإمام الزاهد داود بن نُصَير الطّائي بالكوفة في مستهل القرن الأول للهجرة/ السادس للميلاد، أحسب ذلك[1]، في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣)، وتوفي في عام ١٦٢/ ٧٧٩ في خلافة المهدي بن المنصور العباسي (١٥٨ ـ ١٦٩/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥)، وبذلك؛ يكون داود الطّائي قد عاصر خمسة خلفاء من العصر الأموي ـ المرواني هم:

هشام بن عبد الملكّ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، وإبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين (١٢٧ ـ ١٣٢/ ٧٤٤ ـ ٧٥٠). كما عاصر ثلاثة خلفاء من العصر العباسي هم: أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور، ومحمد المهدي.

١ ـ الأوضاع السياسية في العصر الأموي ـ المرواني:

الملاحظ؛ أن داود الطّائي قد أمضى العقود الثلاثة الأولى من حياته في ظلّ الدولة الأموية، في حين قضى العقود الثلاثة المتبقية

---

(١) لم تحدّد المصادر السنة التي وُلِد فيها داود الطّائي.

تحت سيادة بني العباس، وهذا يعني أنه عاصر فترة حاسمة من تاريخ العالم العربي والإسلامي، وأعني بها، سقوط دولة بني أُميّة وقيام دولة بني العباس.

ولكن من المؤسف؛ أن هذا الرجل الذي شَهِدَت له المصادر بأنه كان «عالماً بأيام الناس» لم يمدّنا بشيء عن تاريخ الأمة آنذاك، وربما يعود ذلك، إلى أنه أتلف كتبه وبدّدها؛ حينما اعتزل حلقات العلم وتفرّغ للعبادة والزّهد.

على كل حال؛ إن إلقاء نظرة شاملة على تاريخ الكوفة؛ تعطينا فكرة عامّة عن أحوال الديار الإسلامية منذ قيام الدولة العربية[1]، وحتى آخر مُشاهدات داود الطائي.

وبالعودة إلى المصادر الأصيلة تبيّن لنا؛ أن هذه المدينة التي مُصّرت في سنة ١٧ هـ/٦٣٨ م في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب[2] (١٣ ـ ٢٣/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤) لم تظهر شُهرتها التاريخية إلا بعد أن اختارها الإمام علي بن أبي طالب (٣٥ ـ ٤٠/

---

(١) المقصود بالدولة العربية، هي الدولة التي قامت بقيام الإسلام، واتّسعت بالفتوحات الكبرى التي قام بها العرب أيام الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أُميّة، ثم انتهت بسقوط الدولة الأموية. وقد وُصِفَت هذه الدولة بالعربية لأن الجنس العربي هو الذي كان حاملاً لواءها، ومُصَرِّفاً لشؤونها، فلما قامت الدولة العباسية شارك في إدارة دفّة الحكم بعض الشعوب التي تحوّلت إلى الإسلام كالفرس والترك والبربر وغيرهم.

(٢) أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، علّق عليه رضوان رضوان، ص ٢٧٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.

٦٥٦ ـ ٦٦١) عاصمةً للخلافة الراشدة في سنة ٣٦/٦٥٧[١].

وبعد استشهاد علي في مسجد الكوفة[٢]، تولّى الخلافة ابنه الحسن[٣] فَجَرَت بينه وبين معاوية بن أبي سفيان مفاوضات أسفرت عن نزول الحسن عن الخلافة لصالح معاوية؛ بدافع حقن دماء المسلمين وذلك في سنة ٤١/٦٦١[٤]، ومنذ ذلك التاريخ ارتبط مصير الكوفة بمصير دولة بني أُميّة (٤١ ـ ١٣٢/ ٦٦١ ـ ٧٥٠).

ففي عهد معاوية (٤١ ـ ٦٠/ ٦٦١ ـ ٦٨٠)، تولّى عمل الكوفة المُغيرة بن شُعبة[٥] فقصدها سنة ٤١/٦٦١ بعد أن زوّده

---

(١) أحمد بن واضح اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٨٤/٢، بيروت: دار صادر، د.ت. كان علي بن أبي طالب (ع) يقول: «الكوفة كنز الإيمان وحجّة الإسلام، وسيف الله ورُمحه يضعه حيث شاء...»، ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد الجندي، ٥٥٩/٤، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠/١٩٩٠.

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، كتاب الإمامة والسياسة، ١٥٠/١ وما بعدها، القاهرة: ط ١، ١٩٠٩.

(٣) عزّ الدين بن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤٠٤/٣، بيروت: دار صادر، ١٣٩٩/١٩٧٩.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ٢١٤/٢ ـ ٢١٥؛ أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، ص ١١٧، بغداد: مكتبة المثنى، د.ت.

(٥) عن سيرته؛ انظر: ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٦٧ ـ ١٦٨؛ بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٨٧؛ ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٤٠٦/٤ ـ ٤٠٧. ط. مصر: ١٢٨٥ هـ.

معاوية بوصية[1] رسم له فيها سياسة بني أُميّة تجاه أهل الكوفة. مما تسبّب بقيام نزاعات بين السلطة الحاكمة وشيعة علي أمثال، حجر بن عديّ [2].

وبعد وفاة المغيرة سنة ٥٠/ ٦٧٠، جعل معاوية ولاية الكوفة لزياد بن أبيه[3]، فحصلت بين شرطته، وبين حجر وأصحابه مواجهات عنيفة انتهت بالقبض على حجر وأتباعه، فسِيقوا إلى دمشق حيث أمر معاوية بقتلهم، فقتلوا صبراً بمرج عذراء سنة ٥١/ ٦٧١[4].

وفي عهد يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣)[5]، شَهِدَت الكوفة استشهاد الإمام الحسين بن علي (ع) سبط رسول الله (ﷺ)، بعد أن خرج من مدينة جدّة سنة ٦٠/ ٦٨٠ متوجّهاً إلى الكوفة آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر[2] فسار لقتاله عمرو بن سعد بن أبي وقاص بأمر من عبيد الله بن زياد بن أبيه، والي

---

(١) عن الوصية؛ راجع: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٤/ ١٨٨، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ط ٤، ١٩٨٣؛ الكامل في التاريخ، ٣/ ٤٧٢.

(٢) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ٦/ ٢١٧ ـ ٢٢٠، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٧/ ١٩٥٧.

(٣) عن سيرته؛ انظر: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢١٨؛ أسد الغابة ٢/ ٢١٥ ـ ٢١٦؛ الكامل في التاريخ ٣/ ٤١٥ ـ ٤١٦.

(٤) الكامل في التاريخ، ٣/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤، ٤٧٦.

(٥) محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، تحقيق مطيع الحافظ، ص ٢٨، بيروت: مؤسسة الرسالة. ط ٢، ١٤٠٦/ ١٩٨٦.

(٦) علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٣/ ٩٨، بيروت: دار الأندلس، ط ٢، ١٩٧٣.

المِصـرَين البصرة والكـوفة، فجَـرَت بينهما وقعـة داميـة على أرض كربلاء استشهد على إثرهـا الحسين بن علي وآل بيته وأصحـابه في العاشر من محرّم ٦١/١٠ تشرين الأول ٦٨٠[١].

وعلى أثـر ذلك؛ ظهـرت حركـة التوّابين الـذين صمّموا على الأخذ بثأر الحسين، فجمعوا صفوفهم في سنـة ٦٨٤/٦٥؛ وساروا في أربعـة آلاف ثـائـر على رأسهم سليمـان الخـزاعي والمسيّب بن نجبة، وقصدوا عبيـد الله بن زياد ومعـه ثلاثين ألف فـارس، فالتقـوا في الجزيرة بموضع يقال له «عين الوردة» فدارت معركة غير متكافئة قتل فيها سليمان وأصحابه[٢].

وبعد عام من وقعة «عين الوردة» تزعّم الشيعة المختار بن أبي عبيـد الثقفي[٣] فجهّز إبـراهيم بن الأشتر[٤] في ثمـانية آلاف لقتـال عبيد الله بن زياد، فـالتقى الجيشان بـالقرب من المـوصل، فـدارت الدائرة على جيش الأمويين، وكانوا أربعين ألفاً، وتمكّن ابن الأشتر

---

(١) تـاريخ اليعقـوبي ٢/٢٤٣ ـ ٢٤٥؛ محمد بن يحيـى بن طبـاطبا المعـروف بـابن الطقطقي، الفخـري في الآداب السلطانيـة والـدول الإسـلاميـة، ص ١١٣ ومـا يلي، بيروت: دار صـادر، د.ت؛ أحمد بن أعثم الكـوفي، كتـاب الفتـوح، ٣/٢٩ ـ ٣٦، ٩٤ ـ ١٢٦، بيـروت: دار الكتب العلميـة، ١٩٨٦.

(٢) تـاريـخ اليعقـوبي، ٢/٢٥٧؛ شمس الـدين الـذهبي، دول الإسـلام، ص ٤٠، بيروت: مؤسسة الأعلمي ١٩٨٥/١٤٠٥.

(٣) عنه؛ انظر: ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٤) هو ابن زعيم سابق كـان قد حـارب مع علي بن أبي طـالب، وقتله معاويـة بالسمّ، وله عشيرة ذات عزّ وعدّة. عن إبراهيم وأبيه مالـك الأشتر؛ انـظر: الكامل في التاريخ، جـ ٣، وجـ ٤ في أماكن عديدة.

من قتل ابن زياد بنفسه، فضربه ضربة قدّته نصفين وذلك في سنة ٦٧/٦٨٦، بعدها غلب المختار على الكوفة، وأباد قتلة الحسين[١].

ولمّا أصبح المختار هو السيد المُطاع في الكوفة، قرّر مصعب بن الزبير أن يُطيح به قبل استفحال أمره في العراق التي كانت تدين بالطاعة لأخيه عبد الله بن الزبير[٢]، لذا؛ كتب مصعب إلى المهلّب بن أبي صُفرة[٣] أن يأتيه بجنده، وساروا جميعاً نحو الكوفة، وأنزلوا الهزيمة بالمختار وقتلوه في سنة ٦٨/٦٨٧[٤].

وعندما رأى الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥) تزايد قوى ابن الزبير؛ زحف بجيشه على العراق، وأنزل الهزيمة بمصعب بعد أن ثبت بنفر قليل من أصحابه، وقاتل بشجاعة حتى قتل في سنة ٧٢/٦٩١؛ فاحتزّت رأسه، وطوّف بها بالكوفة، ثم دخل عبد الملك المدينة، وخطب أهلها، ثم وزّع عطاياه على الأشراف لقاء تخلّيهم عن ابن الزبير، وقبل مغادرته

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٥٨/٢ ـ ٢٥٩، ابن أعثم، المصدر السابق، ٢٦٤/٣ ـ ٢٧١، ٢٩٤ وما بعدها، ٣٠٨ ـ ٣١٤؛ مروج الذهب ٩٨/٣.

(٢) عن سيرته؛ انظر: شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٣٠٨/٢ ـ ٣١١، مصر: مطبعة السعادة، ط ١، ١٣٢٨.

(٣) عن سيرته؛ انظر: المصدر نفسه، ٥٣٥/٣ ـ ٥٣٦؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٤) الأخبار الطّوال، ص ٢٢٨ وما بعدها؛ الكامل في التاريخ، ٢٦٧/٤، ٢٦٨ ـ ٢٧٤.

البلاد نصّب أخاه بُشْر بن مروان[1] عاملاً له على العراق[2]، فاستمر يدير شؤونه حتى وفاته في سنة ٦٩٣/٧٤.

على أثر ذلك؛ وجّه عبد الملك إلى العراق قائده الحجّاج بن يوسف الثقفي[3]، بعد أن ولّاه البصرة والكوفة، وأمره أن يُجيّش الناس لحرب الخوارج[4]، فشخص إلى مسجد الكوفة، وألقى خطبته الشهيرة، التي لخّص من خلالها سياسته إزاء أهل العراق[5].

ولثقل وطأة الحجّاج على الأهلين، اشترك أهل الكوفة بأحداث فتنة عبد الرحمن بن الأشعث[6]، فوثبوا بعامل الحجّاج، وأحرقوا الديوان في سنة ٧٠١/٨٢، عندئذ دخل ابن الأشعث الكوفة، وحشد أهلها معه، فكانت المعركة الفاصلة بدير الجماجم بظاهر الكوفة، حيث انكسر ابن الأشعث، وقتل معه عدد من القرّاء

---

(١) عن سيرته؛ انظر:

Ency. de l'Isl, (art Bishr B. Marwân) t1, p. 749 - 750.

(٢) ابن أعثم، ٣/٣٧٣ وما بعدها؛ مروج الذهب، ٣/١٠٤ ـ ١٠٨؛ الكامل في التاريخ، ٤/٣٢٣ ـ ٣٣٣.

(٣) عن سيرته؛ انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

Ency. de l'Isl, (al - Hadjdjâdi B.Yousof) t2, p.215.

(٤) الطبري، ٥/٤٠ وما بعدها.

(٥) محمد بن يزيد المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ١/٢٢٤، بيروت: مكتبة المعارف؛ مروج الذهب، ٣/١٢٦ وما بعدها.

(٦) عن سيرته؛ انظر:

Ency. de l'Isl, (art ' Abdal - Rahmân B. al - Ash'ath) t1, p.57 - 58.

والفقهاء[1]، واستمر الحجّاج يسوس أهل العراق حتى وفاته سنة ٧١٤/٩٥[2] في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦/ ٧٠٥ - ٧١٥).

والواضح؛ أنه لم تحصل في خلافة الوليد فِتَن واضطرابات في بلاد العراق كتلك التي حصلت في عهد أسلافه؛ لذلك لم يهتم المؤرّخون بأحداث تلك المنطقة، بل وجّهوا اهتماماتهم نحو حرب الثغور التي حقّقها المسلمون في الأندلس، وبلاد ما وراء النهر والسند[3].

ولمّا تولّى الخلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩/ ٧١٥ - ٧١٧)، عمل على إصلاح ما أفسده الحجّاج، فردّ المظالم، وأطلق الأسرى الذين كانوا في السجون[4]، وعزل يزيد بن أبي مسلم، مولى الحجّاج وصاحب شرطته، من عمل العراق بسبب ظلمه، وولّى مكانه يزيد بن المهلّب[5]، فجعل على الكوفة بشير بن حيّان النهدي[6]، ولم تمدّنا المصادر بمعلومات عن أوضاع

---

(١) مروج الذهب، ١٣١/٣ وما بعدها؛ فتوح البلدان، ص ٢٧٢، ٢٨٢؛ دول الإسلام، ص ٤٨؛ المعارف، ص ٢٠٢.

(٢) مؤلّف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق (تحقيق de Geoje)، ١٠/٣ - ١١، ط. بريل، ١٨٧١؛ مروج الذهب، ١٤٢/٣ - ١٤٣، ١٦٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ٢٨٨/٢ - ٢٨٩؛ العيون والحدائق، ٢/٣ - ٣؛ دول الإسلام، ص ٥٥.

(٤) العيون والحدائق، ١٧/٣؛ المعارف، ص ٢٠٣.

(٥) عن سيرته؛ انظر: المعارف، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٦) الكامل في التاريخ، ٢٥/٥.

الكوفة في تلك الفترة، ربما بسبب استتباب الأمن في البلاد، وإما لاهتمام المصادر بالفتوحات التي قُدّر لها أن تبلغ أبواب القسطنطينية[١].

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١/ ٧١٧ - ٧١٩)، عاد العراق ليحتل واجهة الأحداث السياسية؛ بعد أن أصدر عمر أوامره بعزل يزيد بن المهلّب عن عمله، ووجّه إلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن وأوصاه خيراً بأهل المدينة، وحدّد له السياسة الواجب اعتمادها في هذا المِصْر مشدّداً على الرّفق والتسامح[٢].

بعد ذلك؛ شَهِدَت البلاد صراعاً حادّاً بين الخليفة عمر وبين يزيد بن المهلّب الذي انتهى به الأمر إلى سجنه في حصن حلب سنة ١٠٠/٧١٨. ولكن يزيداً استطاع الفرار من سجنه لمّا سمع بموت الخليفة في سنة ١٠١/٧١٩؛ لخوفه من وليّ العهد يزيد بن عبد الملك[٣].

وبالفعل؛ فإن خوف ابن المهلّب كان في محلّه، فما أن تولّى يزيد الخلافة (١٠١ - ١٠٥/ ٧٢٠ - ٧٢٤)، حتى قرّر الانتقام منه، في حين فرّ ابن المهلّب إلى البصرة[٤]، وأعلن عن خلعه

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ٢/٢٩٩؛ الكامل في التاريخ، ٥/٢٧.
(٢) الكامل في التاريخ، ٥/٤٥، ٦١؛ العيون والحدائق، ٣/٤١ وما بعدها.
(٣) تاريخ اليعقوبي، ٢/٣٠٢ - ٣٠٣، ٣٠٨؛ الكامل في التاريخ، ٥/٤٨ - ٤٩، ٥٧.
(٤) مروج الذهب، ٣/١٩٩؛ الكامل في التاريخ، ٥/٧١ وما بعدها.

ليزيد، وشتم آل مروان من على المنابر، ودعا إلى الرضا من بني هاشم[1].

عندئذٍ أرسل الخليفة أخاه مسلمة بن عبد الملك[2] إلى العراق، ومعه جَمع عظيم من أهل الشام والجزيرة، فلما التقى الجيشان؛ وقع قتال شديد تغلّب فيه مسلمة على جيش ابن المهلّب، الذي قُتِلَ واحتزّت رأسه ورؤوس أصحابه، وحُمِلَت إلى يزيد بن عبد الملك فأمر أن يُطاف بها في الشام في سنة ١٠٢/٧٢٠[3]، وأما الأسرى فسرّحهم مسلمة إلى الكوفة حيث قتلوا عن آخرهم[4].

وبعد إزاحة آل المهلّب؛ جمع يزيد بن عبد الملك لأخيه مسلمة ولاية الكوفة والبصرة وخراسان، ثم عاد فعزله وولّى مكانه عمر بن هبيرة[5] في سنة ١٠٢/٧٢٠[6]، فاستهلّ عمر عهده بالتصدّي للخوارج الذين أجهدوا العراق بحروبهم المدمّرة، فنجح من خلال ذلك في إعادة الهدوء والطمأنينة إلى البلاد، واستمر في

---

(١) العيون والحدائق، ٣/٦٥.

(٢) عن سيرته؛ انظر:

Ency. de l'Isl (art Maslama) t3, p.447.

(٣) العيون والحدائق، ٣/٦٨ - ٧٤؛ الكامل في التاريخ، ٥/٧٩ وما بعدها.

(٤) الكامل في التاريخ، ٥/٨٤.

(٥) عن ابن هبيرة؛ انظر: المعارف، ص ٢٣٠ - ٢٣١؛ الكامل في التاريخ، ٥/٩٧ وما بعدها.

Ency. de l'Isl, (art, Ibn Hubaira) t2, p.411.

(٦) الأخبار الطوال، ص ٣٣٤؛ المعارف، ص ٢٠٥؛ الكامل في التاريخ، ٥/٩٧ - ١٠٠.

ولايته حتى مجيء هشام بن عبد الملك إلى الحكم (١٠٥ - ١٢٥/ ٧٢٤ - ٧٤٣)(١)، فعزله وولّى مكانه خالد بن عبد الله القسري(٢). فَقَدِمَ العراق، وبادر بالقبض على ابن هبيرة، عامِل القيسية، وحبسه بغية امتصاص نقمة اليمانية التي كانت لا تزال تحقد على خلافة بني أُميّة(٣). تجدر الإشارة هنا إلى أن الإمام داود الطائي قد أبصر النور في تلك الفترة الحَرِجَة من تاريخ العراق.

مهما يكن؛ فقد استمر خالد يدير شؤون العراق إلى أن عزله الخليفة هشام في سنة ١٢٠/٧٣٨، واستبدله بابن عمّ الحجّاج، يوسف بن عمر الثقفي(٤)، مما تسبّب بعودة الفِتَن والاضطرابات إلى العراق، وذلك لإغضابه اليمانية بعد حبسه وتعذيبه ابن جلدتهم خالد القسري(٥)، ولتشدّده في معاملة الشيعة الزيدية وعلى رأسهم زيد بن علي، الذي أعلن ثورته في سنة ١٢٢/٧٤٠(٦).

والواضح؛ أن زيداً لم يكن ينشد الثورة أول الأمر؛ بدليل أنه غادر الكوفة متوجّهاً إلى القادسية(٧) استجابة لأوامر الخليفة هشام،

---

(١) محمد بن يزيد، تاريخ الخلفاء، ص ٣٣.

(٢) عن سيرته؛ انظر:
Ency. de l'Isl, (art Khàlid B. 'Abd Allah al - Kasrî), t2, p.929 - 930.

(٣) العيون والحدائق، ٨٢/٣ وما بعدها؛ الكامل في التاريخ ١٢٤/٥.

(٤) الكامل في التاريخ، ٢١٩/٥ - ٢٢٦؛ عن سيرة يوسف الثقفي؛ انظر: المعارف، ص ٢٢٤.

(٥) الأخبار الطوال، ص ٣٤٣؛ الكامل في التاريخ، ٢٧٦/٥ وما بعدها.

(٦) أبو الفرج الأصبهاني، مقاتل الطالبيين، تحقيق السيد أحمد صقر، ٣٢٥، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٧/١٤٠٨؛ مروج الذهب، ٢٠٦/٣؛ الكامل في التاريخ، ٢٢٩/٥.

(٧) بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، معجم البلدان، ٣٣١/٤ - ٣٣٢.

غير أن شيعته حسّنت له ذلك وأغرته بالخروج، بعد أن أكّدوا له أن معه مائة سيف يجاهدون دونه[1]، فاستجاب لهم وعاد إلى الكوفة يستقبل أنصاره؛ حتى أحصى ديوانه خمس عشرة ألف رجل من أهل الكوفة وحدها، غير أنه حين أعلن عن ثورته وافاه منهم مائتان وثمانية عشر رجلاً فقط[2]. مما يدلّ على أن الذي دعا إلى تأييده هو حماس المجموع[3] أو أنهم تخوّفوا من مواجهة الجيوش المنظّمة بخاصّة وهم غير مهيّئين للجهاد.

وعلى الرغم من ذلك؛ فقد ثبت زيد ورجاله حتى قتلوا عن آخرهم، وأما زيد فأُصيب بسهم في دماغه، فأمر يوسف الثقفي أن تُقطع رأسه وتُحمل إلى هشام وطوّف بها في الأقطار[4]، وبعد أن هدأت الثورة، دخل يوسف مسجد الكوفة وخطب أهلها، فتوعّدهم وهدّدهم وأمر بقطع أرزاقهم[5]، وقد ترتّب على ذلك؛ أن تفرّق أتباع زيد وأنصاره، كما هرب ابنه يحيى إلى خراسان[6] فكانت هذه آخر الأحداث التي شهدتها البلاد خلال حكم هشام بن عبد الملك.

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ١٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٢؛ العيون والحدائق، ٣/٩٥، ٩٨.

(٣) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ٢/٢٨٤، بيروت: مكتبة الجامعة العربية، ط ٣، ١٩٦٦.

(٤) تاريخ اليعقوبي، ٢/٣٢٦؛ مروج الذهب، ٣/٢٠٧؛ الكامل في التاريخ، ٥/٢٤٦.

(٥) العيون والحدائق، ٣/١٠٠.

(٦) الكامل في التاريخ، ٥/٢٤٦؛ مقاتل الطالبيين، ص ١٤٥.

وبعد هشام؛ تولّى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦/ ٧٤٣ - ٧٤٤)، فكان عهده بداية النهاية لدولة بني أُميّة[١]، فبسبب سوء سياسته، وإهماله لشؤون الخلافة، وعدم اهتمامه بالولايات، عمّت الفوضى والاضطرابات في البلاد، مما عجّل بنهايته على يد ابن عمّه يزيد بن الوليد بن عبد الملك المعروف «بالناقص» (١٢٦/٧٤٤)[٢].

ولعلّ الخليفة يزيد كان مهتمّاً بأمر العراق، لذا؛ جعل عليها منصور بن جمهور الكلبي وأوصاه بأهلها خيراً[٣]، فلما دخل منصور الكوفة خطب أهلها وذمّ الوليد وعامِلَه يوسف بن عمر الثقفي[٤]، ولكن منصور عاد فخيّب أمل الخليفة، الذي أمر بعزله، وعيّن عِوَضاً عنه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز[٥]، فَقَدِمَ البلاد، وفرّق العمّال، وأعطى الناس أرزاقهم وأُعطياتهم[٦]، وبذلك استتبّ الحكم في العراق ليزيد الناقص إلى أن وافته المنيّة في سنة ١٢٦/٧٤٤، بعد حكم دام ستّة أشهر[٧].

وبعد يزيد؛ تولّى الخلافة أخوه «إبراهيم الخليع»، ولكن

---

(١) المعارف، ص ٢٠٥ - ٢٠٦؛ مروج الذهب، ٣/٢١٦؛ الفخري، ص ١٣١.
(٢) الكامل في التاريخ، ٥/ ٢٨٠ - ٢٨١؛ دول الإسلام، ص ٧٦.
(٣) الكامل في التاريخ، ٥/٢٩٥.
(٤) العيون والحدائق، ٣/١٥١؛ الكامل في التاريخ، ٥/٢٩٦ - ٢٩٧.
(٥) انظر:
Ency. de l'Isl, (art 'Abd - Allah B. Omar) t1. p.29.
(٦) الكامل في التاريخ، ٥/٣٠٢.
(٧) الأخبار الطوال، ص ٣٥٠؛ دول الإسلام، ص ٧٦.

بيعته لم تتمّ، فاضطرب أمره، ومكث أربعة أشهر، ثم خلعه مروان بن محمد في سنة ١٢٧/٧٤٤[١].

ولمّا سيطر مروان على الحكم؛ أحدث في العراق تغييرات جذرية، فعزل عبد الله بن عبد العزيز، عامل يزيد الناقص وإبراهيم، وولّى مكانه النضر بن سعيد الحرشي، فامتنع ابن عمر عن تسليم العمل للحرشي، مما تسبّب بوقوع الحرب بينهما[٢] ثم عدلا إلى الصلح لمّا شعَرا بخطر الخوارج على العراق بزعامة الضحّاك بن قيس الشيباني[٣]، ودارت معارك طاحنة بالقرب من الكوفة انتصر فيها الضحّاك وهرب الحرشي وابن عمر[٤]. وترتّب على ذلك أن سيطر الضحّاك على العراق.

ولمّا رأى مروان تردّي الأوضاع في البلاد، كتب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة[٥]، يأمره بالمسير إلى العراق لحرب الخوارج، فتصدّى لهم وهزمهم بالكوفة ثم في البصرة، فشتّت جموعهم، واستباح عسكرهم[٦]، وبذلك سيطر ابن هبيرة على العراق التي تولّى شؤونها رسمياً من قِبَل مروان بن محمد في سنة ١٢٨/٧٤٦[٧]، فأعاد إليها الهدوء، وردّها إلى سيادة بني أُميّة،

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ٢/٣٣٧؛ الفخري، ص ١٣٧.
(٢) الكامل في التاريخ، ٥/٣٣٥.
(٣) انظر:
Ency. de l'Isl, (art Al - Dahhâk B. käs al Shaibanî) t1, p.915 - 916.
(٤) الطبري، ٥/٦١١ وما بعدها؛ الكامل في التاريخ، ٥/٣٣٥-٣٣٦.
(٥) عن سيرته؛ انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٣١.
(٦) الكامل في التاريخ، ٥/٣٥١ ـ ٣٥٤؛ المعارف، ص ٢٠٨.
(٧) تاريخ اليعقوبي، ٢/٣٣٩؛ الطبري، ٦/١٧.

الـذين استمـر حكمهم إلى سنـة ١٣٢/٧٥٠، حين أُعلِنَ عن قيـام دولة بني العباس.

٢ ـ الحالة السياسية في العهد العباسي:

لا بدّ أن يكون داود الـطائي قد وعى بشكـل جيد؛ الأحـداث السيـاسية والعسكـرية التي شهـدتها الكـوفة إبّـان الحكم العباسي، بخاصّة وأنه كان في العقـد الثالث من عمـره، وأمر آخـر، فإنـه لم يكن قـد اعتزل بعـد حلقـات العلم، وكـان من أُولى اهتمامـاته في تلك الآونة الإلمام «بأيام الناس» وسائر علوم عصره.

وبالعودة إلى أواخر العصر الأمـوي، نلاحظ أن السـلام الذي حقّقه يزيد بن هبيرة في العراق لم يدم طويلاً، إذ سرعان مـا حصل التغييـر الكبير، ولاحت في الأفق تبـاشير دولة بني العبـاس، الذين أعلنوا الثورة في خُراسان بقيادة القائد الفذّ أبي مسلم الخراساني[١] في سنـة ١٢٩/٧٤٨[٢]، وبـأمـر من إبـراهيم الإمـام[٣]، الـزعيم الـروحي للثورة العبـاسية، والـذي قضى صبـراً على يـد مـروان بن محمد[٤].

---

(١) العيون والحدائق، ١٨٢/٣ ـ ١٨٣؛
Ency. de l'Isl, (art Abû Muslim) t1, p.145.

(٢) الطبري، ١٨/٦ وما بعدها؛ الكامل في التاريخ، ٣٥٦/٥.

(٣) هـو إبـراهيم بن محمـد بن علي بن عبـد الله بن العبـاس أخـو السفـاح والمنصور، (الفخري، ص ١٤٥).

(٤) تاريخ اليعقوبي، ٣٤٢/٢؛ الكامل، ٣٦٦/٥، ٤٠٩، ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

وعلى إثر ذلك؛ سار أبو العباس، خليفة إبراهيم الإمام، بأهل بيته[1] حتى قَدِمَ الكوفة، فاستقبلهم أبو سلمة الخلّال[2] وأنزلهم دار الوليد بن سعد، وتولّى خدمتهم بنفسه، وكتم أمرهم قرابة الأربعين ليلة من جميع القوّاد والشيعة[3].

في هذه الأثناء؛ كانت الجيوش العباسية قد غطّت معظم بلاد خراسان؛ وتقدّمت طلائعها نحو العراق بقيادة الداعية قحطبة بن شبيب، وكانت وجهته الكوفة، باعتبارها قلب العراق، وبسقوطها تسقط سائر المناطق. فاعترضه ابن هبيرة في محاولة منه لصدّه، فالتحم الجيشان في معركة حامية بالقرب من الكوفة؛ انتصر فيها قحطبة الذي قضى غرقاً سنة ١٣٢/٧٤٩، فتولّى القيادة من بعده ابنه الحسن[4]، وانهزم ابن هبيرة إلى واسط تاركاً عسكره وما فيه من أموال وسلاح[5].

خلال ذلك؛ بدأت الكوفة تتأثّر سياسياً وعسكرياً بالمستجدّات على الساحة الإسلامية، فبعد أن وصلت أخبار الفتوح

---

(١) منهم: أخوه أبو جعفر المنصور، وعبد الوهاب ومحمد ابنا إبراهيم الإمام، وأعمامه داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي، وابن عمّه داود، وابن أخيه عيسى بن موسى وغيرهم. (الكامل في التاريخ، ٥/٤٠٩).

(٢) انظر: الفخري، ص ١٥٣ ـ ١٥٥.

(٣) الطبري، ٦/٨٠؛ الكامل في التاريخ، ٥/٤٠٩.

(٤) أوصى قحطبة بقوله: «إن حدث بي حدث فالحسن ابني أمير الناس». (الكامل في التاريخ، ٥/٤٠٣).

(٥) مجهول، أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار، ص ٣٢١ وما بعدها، بيروت: ١٩٧٢؛ الكامل، ٥/٤٠١ ـ ٤٠٤.

إلى محمد بن خالد القسري وهو بالكوفة، رفع شِعار بني العباس، ودخل قصر الإمارة بعد أن ارتحل عنه زياد بن صالح الحارثي، عامل ابن هبيرة على الكوفة، ومَن معه من أهل الشام، ثم كتب محمد القسري إلى قحطبة، وهو لا يعلم بهلاكه، يعلمه أنه قد ظفر بالمدينة، فدخلها الحسن بن قحطبة ومعه أصحابه، وأتوا أبا سلمة الخلّال، فاستخرجوه، فعسكر بالنُّخَيْلَة(١)، وتوجّه الحسن إلى واسط لحرب ابن هبيرة، وبايع أهل الكوفة أبا سلمة، فولّى عليهم محمد القسري حتى ظهر أبو العباس(٢).

ولمّا أُخبِرَ القوّاد باحتجاز بني العباس في الكوفة من قِبَل أبي سلمة الخلال، دخلوا عليهم، وسلّموا على أبي العباس بالخلافة، وعزّوه بأخيه إبراهيم الإمام(٣)، وفي اليوم التالي؛ لبس الجند السلاح واصطفّوا لخروج أبي العباس، فركب بِرْذَوناً(٤) أبلق، وركب مَن معه من أهل بيته فدخلوا دار الإمارة، ثم خرجوا إلى المسجد، فخطب أبو العباس خطبته الشهيرة(٥)، التي بيّن فيها حقّ

---

(١) النخيلة: تصغير نخلة، موضع قرب الكوفة، وهو الموضع الذي خرج إليه علي بن أبي طالب (ع)، لمّا بلغه ما فعل بالأنبار من قتل عامله عليها وخطب خطبة مشهورة ذمّ فيها أهل الكوفة وقال: «اللّهمّ إني لقد مللتُهم وملّوني فأرِحني منهم!». فقُتل بعد ذلك بأيام. (معجم البلدان، ٥/٢٢٢).

(٢) الكامل في التاريخ، ٥/٤٠٥.

(٣) الطبري، ٦/٨١.

(٤) البِرْذَوْنُ: جـ براذين، الدابّة، وقيل: التركي من الخيل. (محمد الرازي، مختار الصحاح، تحقيق لجنة من العلماء، ص ٤٧، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٣/١٩٧٣).

(٥) عن الخطبة بطولها؛ انظر: الكامل في التاريخ، ٥/٤١١ ـ ٤١٥.

أُسرته في الخلافة، وزاد في أُعطيات أهل الكوفة وقال لهم: «. . . فاستعدّوا فأنا السفّاح المُبيح والثائر المبير». ثم نزل ودخل القصر، وأجلس أخاه أبا جعفر يأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم حتى جنّهم الليل[1].

بعد ذلك؛ خرج أبو العباس من الكوفة مستخلفاً عليها عمّه داود بن علي وعسكر بحمّام أعين، قرب الكوفة، فتوافد عليه الناس من الأمصار يبايعونه، فلما قَوِيَت شوكته؛ ندب عمّه عبد الله بن علي لقتال مروان بن محمد فالتقى الجيشان على نهر الزاب الأعلى قرب الموصل، فهزم مروان سنة ١٣٢/ ٧٥٠ بعد أن غَرِقَ مُعظم جيشه[2].

من جهة ثانية، عمد أبو العباس إلى تكليف أخيه أبي جعفر في القضاء على عمر بن هبيرة، فتوجّه إلى واسط، وضرب عليه الحصار، وراح يستميل إليه القوّاد وأشراف العرب في جيش ابن هبيرة حتى أجبره على التسليم بعد أن أعطاه الأمان، ولكن أبا جعفر عاد فغدر به وقتله سنة ١٣٢/ ٧٥٠[3] باعتباره آخر معقل لبني أُميّة.

والواضح، أن السفّاح لم يكن مطمئناً لإقامته في الكوفة، بدليل أنه تركها بعد مدة وجيزة، وانتقل إلى مكان قريب منها عُرِفَ بهاشمية الكوفة، واتخذها مقرّاً له ولحاشيته في سنة

---

(١) الطبري، ٦/٨٣؛ الكامل في التاريخ ٥/٤١١ ـ ٤١٢، ٤١٦؛ الفخري، ١٤٦.

(٢) الكامل في التاريخ، ٥/٤١٧ ـ ٤٢١.

(٣) الأخبار الطوال، ص ٣٧٠ وما بعدها؛ اليعقوبي ٢/٣٥٤؛ المعارف، ص ٢٣١؛ الكامل، ٥/٤٣٧ ـ ٤٤٢.

١٣٢/ ٧٥٠[١]، وفي الوقت نفسه أجرى بعض التغييرات في رجال دولته؛ فتخلّص من أبي سلمة الخلّال «وزيد آل محمد»[٢]، كما عزل عمّه داود بن علي عن الكوفة وسوادها وولّى موضعه ابن أخيه عيسى بن موسى فاستقضى محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى[٣].

وظلّ هذا شأن دولة السفّاح؛ حتى انتقل في سنة ١٣٤/ ٧٥٢ من الحيرة إلى مدينة الأنبار شمالي الكوفة على نهر الفرات؛ حيث بنى بجِوارها مدينته المعروفة بهاشمية الأنبار، فأقام بها حتى وفاته في سنة ١٣٦/ ٧٥٤[٤].

وبعد السفّاح؛ تولّى الخلافة أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥) فاستهلّ حكمه بالتخلّص من عمّه عبد الله بن علي[٥] الذي تنمّر لاستخلاص الخلافة لنفسه[٦]،

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٨٥.

(٢) الكامل في التاريخ ٥/٤٣٦؛ الفخري، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) الكامل في التاريخ، ٥/٤٤٥؛ خليفة بن خياط، حقّقه أكرم العمري، ٢/٤٣٨، النجف الأشرف: مط. الآداب، ط ١، ١٣٨٦/١٩٦٧. ومحمد بن أبي ليلى: كوفي، صدوق، ثقة، توفي سنة ١٤٨/ ٧٦٥. (أحمد العجلي، تاريخ الثقات، بعناية عبد المعطي قلعجي، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٥/١٩٨٤.

(٤) الكامل، ٥/٤٥٤، ٤٥٩؛ عبد الحيّ بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب، ١/١٨٥، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٣٩٩/١٩٧٩.

(٥) عنه؛ انظر:

Encу. de l'Isl (art 'Abd Allâh B. Âli) t1, p.44.

(٦) اليعقوبي، ٢/١٦٥؛ الفخري، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

وكذلك أطاح بأبي مسلم الخراساني «أمين آل محمد» في سنة ١٣٧ / ٧٥٥[١]. وما كادت تصفو له الأمور حتى اشتعلت ضدّه ثورة علوية حسنية بقيادة محمد النفس الزكية[٢] الذي خرج غضباً لله، فاستولى على المدينة ومكة واليمن، فتخوّف أبو جعفر على حكمه، وفكّر في أن يشخص إليه بنفسه، ثم عدل عن ذلك، وأرسل نحوه وليّ عهده عيسى بن موسى ومعه حميد بن قحطبة، الذي تمكّن من قتل محمد داخل المدينة المنورة وحمل رأسه على رمح إلى أبي جعفر فخرّ ساجداً، ثم أمر فطِيفَ به في الكوفة وسيّره إلى الآفاق. وكان قتله في ١٤ رمضان ١٤٥ / شباط ٧٦٣[٣].

ولقد كان لثورة النفس الزكية صدىً في العراق، فخرج إبراهيم بن عبد الله أخو محمد في البصرة، واستولى عليها وقويت شوكته بعد أخذه واسط والأهواز وفارس وكرمان[٤]. أما الكوفة؛ فكانت تغلي كالمِرجَل، ولكنها بقيت مغلوبة على أمرها بسبب محاصرتها من قِبَل الخليفة الذي حالَ دون خروج أهلها إلى البصرة للمشاركة في الثورة[٥].

ولمّا اكتملت جموع إبراهيم؛ خرج إلى باخمرا في ضواحي الكوفة، وهدّد أبا جعفر في عقر دياره، حتى جعله لا يقرّ ولا ينام

---

(١) الطبري، ٦/ ١٣٠ وما بعدها؛ الفخري، ص ١٦٨ ـ ١٧١.
(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.
(٣) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٢٢٩ وما بعدها، الطبري، ٦/ ١٨٤ وما بعدها؛ الفخري، ص ١٦٥؛ الكامل، ٥/ ٥٥٠.
(٤) الطبري، ٦/ ٢٥٦؛ الذهبي، دول الإسلام، ص ٨٨.
(٥) الطبري، ٦/ ٢٤٧.

وحارَ في نفسه وحوله بالكوفة مائة ألف سيف كامنة مضمرة للفتك به[1].

إزاء هذا الوضع الخطير؛ لم يتأخر الخليفة في إرسال جيوشه نحو إبراهيم وعلى رأسهم عيسى بن موسى، وليّ عهده، وحميد بن قحطبة[2]، ومع أن جيش إبراهيم سجّل انتصارات باهرة أول الأمر، بحيث أن أبا جعفر أمر بإعداد الإبل والدّواب على جميع أبواب الكوفة ليهرب عليها[3]، إلاّ أن حُمَيد بن قحطبة حوّل الهزيمة إلى نصر، فحمل بنفسه على إبراهيم، وفرّق الزيدية الذين استبسلوا في الدفاع عنه، وأصابه في نحره، ثم شدّ عليه وحزّ رأسه، وأرسلها إلى أبي جعفر في ترس؛ لتجوب الكوفة، أما جسده فدفن في باخمرا في ذي الحجة سنة ١٤٥/ آذار ٧٦٣؛ فعُرِفَ بقتيل باخمرا[4].

وهكذا؛ قضى أبو جعفر على ثورات علوية خطيرة، هدّدت حياته وكيانه السياسي، وكادت تودي بالخلافة العباسية، ونظراً لأهمية تلك الانتصارات اتخذ لقب «المنصور بالله» ثم خطب أهل الكوفة، فهدّدهم وتوعّدهم، ثم لعنهم ولعن مدينتهم التي سمّاها «المدرة الخبيثة»[5].

---

(١) الطبري، ٦/٢٥٧؛ الكامل في التاريخ، ٥/٥٦٦؛ دول الإسلام، ص ٨٨.
(٢) الكامل في التاريخ، ٥/٥٦٧.
(٣) مقاتل الطالبيين، ص ٢٩٨.
(٤) الطبري، ٦/٢٦٠ ـ ٢٦٢؛ الكامل، ٥/٥٦٩؛ مقاتل الطالبيين، ص ٢٩٤.
(٥) العيون والحدائق، ٣/٢٥٤. والمدرة: هي القرية المبنية بالطين واللّبِن. جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب (مادة مدر)، بيروت: دار صادر، ودار بيروت، د.ت.

والثابت؛ أن المنصور كان، خلال ثورة الحسنيين، منهمكاً ببناء عاصمته «بغداد» أو «مدينة السلام»[١] وكان دافعه الأهم للقيام بذلك، هو خوفه من أهل الكوفة، فإنه كان لا يأمن أهلها على نفسه بعد أن أفسدوا جنده، بحسب زعمه[٢].

وبعد انتقال المنصور إلى عاصمته الجديدة، بدأ في إرساء دعائم دولته، وتنظيم إدارتها بشكل متقن؛ حتى استحق بجدارة لقب «فحل بني العباس»[٣]، واعتبر دون نزاع: «المؤسّس الحقيقي لدولة بني العباس»[٤].

وكانت ضربة المنصور الأخيرة؛ والتي حقّق من خلالها جميع طموحاته السياسية، هي نقله ولاية العهد من ابن أخيه عيسى بن موسى عامله على الكوفة[٥] إلى ابنه محمد المهدي[٦] الذي تسلّم الحكم في سنة ١٥٨/٧٧٥، واعتبر عهده مُتمِّماً لعهد أبيه في إرساء نظم الدولة العباسية مما زاد في تمكينها، فقد استكمل بناء «الرُّصَافة»[٧] أو بغداد الشرقية حتى أصبحت العاصمة في عهده[٨].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٩٣ وما بعدها.
(٢) الكامل في التاريخ، ٥/٥٥٧ ـ ٥٥٨؛ الفخري، ص ١٦١.
(٣) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد عبد الحميد، ص ٢٥٩، ط. مصر: المكتبة التجارية، ١٣٧١/١٩٥٢.
(٤) عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول، ص ١٠٨، القاهرة: مكتبة الأنجلو ـ المصرية، ط ٢، ١٩٧٩.
(٥) العيون والحدائق، ٣/٢٥٩.
(٦) الكامل، ٥/٥٧٧ ـ ٥٧٨؛ الفخري، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٧) الكامل في التاريخ، ٥/٦٠٢ وما بعدها.
(٨) الطبري، ٦/٣٦٨ ـ ٣٧٢.

والملاحظ؛ أن دور الكوفة أصبح جانبياً في السنوات الأخيرة من عهد المنصور وفي أوائل عهد المهدي، ولعلّ مردّ ذلك؛ إلى استتباب الأمن في المدينة، وإما بسبب سياسة القمع التي مارسها الخليفة بعد تصدّيه للحركات العلوية، والأهم من ذلك كله، هو تحوّل أنظار المؤرّخين إلى العاصمة بغداد التي أصبحت محور الأحداث السياسية بعد أن غَدَت قبّة الإسلام في دولة بني العباس.

مهما يكن من أمر؛ فإننا لم نعد نعثر في المصادر على تفاصيل للأحداث التي شهدتها الكوفة خلال تلك الفترة، وكلّ ما لدينا من معلومات تتلخّص في أن عيسى بن موسى كان علىَ إمارة الكوفة حينما تسلّم المنصور سُدّة الحكم[1]، وبقي يدير شؤونها أكثر من ثلاث عشرة سنة[2]، وذكر ابن الأثير أنه لم يزل على ولاية العهد وإمارة الكوفة من أيام السفّاح إلى سنة ١٤٧/٧٦٤[3] ثم عزله المنصور وولّى مكانه محمد بن سليمان بن علي[4] فبقي بضع سنين ثم عزله واستعمل عمرو بن زهير أخا المسيّب بن زهير حتى مات المنصور[5].

وأما المهدي فقد ولّى على الكوفة إسحاق بن الصباح

---

(١) الكامل في التاريخ، ٤٦٣/٥.
(٢) ماجد، العصر العباسي الأول، ص ١٢٦.
(٣) الكامل في التاريخ، ٥٧٧/٥؛ (وذكر خليفة بن خياط أنه عزله سنة ٧٥٦/١٣٩، وولّى محمد بن سليمان ثماني سنين) ٤٦٢/٢.
(٤) ورد ذكر إمارته لأول مرة في الكامل سنة ٨٦٧/١٥٠ (٥٩٤/٥).
(٥) تاريخ خليفة، ٤٦٢/٢؛ (ذكره ابن الأثير في وُلاة سنة ٧٧٢/١٥٥ و٧٧٣/١٥٦)؛ الكامل ٨/٦، ١١.

الكنـدي[1] وقيـل: «عيسى بن لُقمـان بن مـحمـد بـن حـاطب الجُمَحيّ»[2]، وعلى خـراجهـا ثـابت بن مـوسى، وعلى قضـائهـا شريك بن عبد الله النخعي[3].

وفي سنـة ١٦٠/٧٧٦ استعمل المهـدي رَوْحَ بن حاتم للنَّيْـل من عيسى بن مـوسى وليّ العهد[4]، وحلّت سنـة ١٦٢/٧٧٩ وعلى الكوفة إسحاق بن منصور أو إسحاق بن الصباح[5] وهـو آخر الـوُلاة الذين عايشهم الإمام داود بن نصير الطائي.

والمُلفِت للنـظر؛ أن داود الـطائي لم يقم بـأيّ نشـاط إزاء الأحداث السياسية والعسكرية التي شَهِدَتهـا البلاد، على عكس مـا قامت به جمهرة من الفقهاء الأعلام الذين كانت لهم مواقف واضحة من الأحداث المعاصرة، ونخصّ بالذكر مـوقف سليمان الأعمش[6] من ثـورة زيـد بن علي سنـة ١٢٢/٦٤٠[7]. وكـذلـك مـوقف أبي

---

(١) الكـامـل، ٦/٤٠؛ هـو إسحـاق بن الصبـاح بن عمـران بن إسمـاعيـل بن محمد بن الأشعث.
(٢) تاريخ خليفة، ٢/٤٧٢.
(٣) الكامل، ٦/٤١.
(٤) المصدر نفسه، ٦/٤٤.
(٥) المصدر نفسه، ٦/٥٦، ٦٢؛ تاريخ خليفة، ٢/٤٧٢.
(٦) هو سليمان بن مهران الأعمش الأسدي، كـان ثقة ثَبْتـاً في الحديث، وكـان محدّث أهل الكوفة في زمانه، مات سنة ١٤٨/٧٦٥. عن سيـرته؛ انـظر: جـلال الدين السيـوطي، طبقـات الحفّـاظ، ص ٩٥، بيـروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/١٩٨٣.
(٧) مقاتل الطالبيين، ص ١٤٢.

حنيفة[1]، صاحب المذهب المعروف وأُستاذ داود الطائي فقد بعث إلى زيد بالخيل والسلاح وأرسل إليه قائلاً: «إن لك عندي معونة على جهاد عدوّك فاستعن بها أنت وأصحابك في الكُرَاع - الخيل - والسلاح»[2].

كما استجاب لثورة زيد وأيّده في الخروج ضدّ الخليفة هشام بن عبد الملك كلٌّ من الفقهاء والمحدّثين: سليمة بن كهيل، ويزيد بن أبي زياد، وهارون بن سعد، وهشام بن البريد، وأبو هاشم الرماني، والحجّاج بن دينار، وقاضي المدائن هلال بن الحباب، ومحمد بن أبي ليلى، وأما منصور بن المعتمر فكان يدعو في البلاد إلى الخروج مع زيد[3].

ولمّا أعلن محمد النفس الزكيّة عن ثورته ضدّ الخليفة المنصور في عام ١٤٥/٧٦٣؛ لاقى تأييداً كبيراً من قِبَل أعلام الفقهاء والمحدّثين؛ حتى أن الإمام مالك بن أنس الفقيه الكبير وصاحب المذهب المعروف، لمّا استُفتِيَ في حركته، أفتى في الخروج معه ونقض بيعة أبي جعفر، وقال: «إنما بايعتم مكرهين، وليس على مُكرَه يمين»[4]، فكان ذلك من أسباب إسراع الناس إلى النفس الزكية.

---

(١) عنه انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٣٢٩/١٣، بيروت: دار الكتب العلمية، د ت.

Ency. de l'Isl, (art Abu Hanifa) t1, p.126.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٠، ١٤١، ١٤٢. وردت أسماء بعض هؤلاء الأعلام في تاريخ ثقات العجلي، ص ١٠٨، ٤٠٧، ٤٤٠.

(٤) الطبري، ١٩٠/٦؛ مقاتل الطالبيين، ص ٢٤٩؛ الكامل، ٥٣٢/٥.

كذلك أيّد محمد في ثورته جماعة من معتزلة أهل البصرة، فيُروَى أنهم خرجوا إليه وعلى رأسهم واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، فبايعوه وانصرفوا عائدين إلى البصرة(١). ولمّا أُعلنت الثورة خرج مع محمد، عبد الله بن هرمز الفقيه الورع ومحمد بن عجلان فقيه أهل المدينة وعابدها، فلما حضر القتال تقلّد كلّ واحدٍ منهما قوساً ليُرِيا الناس أنهما قد صلحا هذا الأمر(٢).

وكما أعلن أبو حنيفة عن سياسته تجاه ثورة زيد، فقد كان موقفه واضحاً من ثورة إبراهيم الحسني، لذا كتب إليه يحثّه على ترك البصرة والقدوم إلى الكوفة فقال له: «ائتها سرّاً فإن مَن هاهنا من شيعتكم يبيتون أبا جعفر فيقتلونه، أو يأخذون برقبته فيأتونك به»(٣).

بالإضافة إلى ذلك؛ فقد كان أبو حنيفة يفتي الناس بالخروج مع إبراهيم وجهر في ذلك جهراً شديداً(٤)، حتى أنه ساوى بين شهداء بدر وشهداء ثورة إبراهيم، وفي رأيه أن الشهادة مع إبراهيم خير من الحياة(٥)، ولمّا سأله سديد الحنفي: أيّهما أحبّ إليك بعد حجّة الإسلام: الخروج إلى هذا أو الحجّ؟ فقال: «غزوة بعد حجّة الإسلام أفضل من خمسين حجة»(٦).

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩.
(٢) الطبري، ٦/٢٢٢، مقاتل الطالبيين، ص ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٤.
(٣) مقاتل الطالبيين، ص ٣١٤؛ الخطيب البغدادي، ١٣/٣٢٩.
(٤) مقاتل الطالبيين، ص ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٥.
(٥) المصدر نفسه، ص ٣١٣.
(٦) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

كذلك كان للإمام شُعبة بن الحجّاج[1] رأيه الخاصّ في الأحداث التي عاصرها، فرُوِيَ أنه كان يقول للناس في نصرة إبراهيم: «ما يقعدكم؟ هي بدر الصغرى»[2]. وكان صالح المروزي[3] بدوره يحرّض الناس للانضمام إلى إبراهيم، وسمع الأعمش يقول للناس: «ما يقعدكم؟ أما أني لو كنت بصيراً لخرجت»[4].

فهذه هي المواقف الشجاعة التي حفظتها المصادر للفقهاء والمحدّثين، فهي تعبّر بصدق عن شجاعتهم الأدبية وعن حماسهم ونُبْل مشاعرهم ومدى مشاركتهم في أحداث بلادهم، ليكونوا بحق، روّاد الأمة، وفي طليعة الموكب، وعلى قدر الحَدَث الذي يعصف ببلادهم.

وبالمناسبة أُريد أن أُسجّل موقفاً خجولاً ومُشَرّفاً في آنٍ واحد، فأُذَكّر بأنني كتبت هذا الجانب من الدراسة، وأنا من بين الصامدين على أرض الجنوب، إبّان الهجمة الصهيونية الشرسة (في صفر ١٤١٤/تموز ١٩٩٣) والتي سُمّيت بـ «تصفية الحسابات». وأُدوّن هذه الإشارة للذكرى والتاريخ، وتكريساً لموقف الشرفاء من

---

(١) عن سيرته، انظر: كتابنا الإمام شُعبة بن الحجّاج الأزدي سيّد المحدّثين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٣/١٩٩٤.

(٢) مقاتل الطالبيين، ص ٣١٣.

(٣) عن سيرته، انظر: ابن أبي حاتم الرازي، كتاب الجرح والتعديل، ٤/٤١٥، بيروت: دار الكتب العلمية، صورة عن دائرة المعارف العثمانية.

(٤) مقاتل الطالبيين، ص ٣١٤.

أبناء بلادي الذين صمدوا دون أدنى مقوّمات الصمود المادية، وإنما يكفيهم فخراً؛ أن مبادىء الصمود الحقيقية تنبض في عروقهم، وتبقى شُعلة الحرية تتأجّج في صدورهم، وتدعوهم بإلحاح إلى حبّ الوطن والتشبّث بالأرض الطيبة.

بعد عرض هذه الجوانب؛ يجدر بنا أن نعود إلى الفقيه داود الطائي لنبحث في مولده، ونشأته العلمية ثم نعرج على مكانته الفكرية. وكلها أمور تساعد على سَبْر جوانب بارزة في شخصيته التي تسنّى لها أن تبلغ أعلى المراتب العلمية.

الفصل الثاني

نشأة داود الطائي، واعتزاله حلقات العلم

أولاً ـ حياة داود ومكانته الفكرية:

١ ـ مولده ونشأته:

هو الإمام داود بن نُصَير الطّائي، أبو سليمان الكوفي[١]، الفقيه الزاهد[٢]، والعالِم الربّاني[٣]، أحد الأعلام العاملين في زمانه[٤]، وهو من تابِعِي التابعين بالكوفة[٥]، كان من كبار أصحاب

---

(١) الجرح والتعديل، ٣/٤٢٦.

(٢) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ١٠/١٤٥، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠١/١٩٨١؛ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ٣/٢٠٣، حيدر آباد: الدكن، مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧ هـ.

(٣) ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ٧/٢١٣، ط ٣، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٦/١٩٨٦؛ صفيّ الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ص ٩٤، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٢٢.

(٤) شمس الدين محمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر تدمري، ص ١٧٧، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٧/١٩٨٧؛ خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء بيرتدرانكة، ١٣/٤٩٥، فيسبادن، فرانزشتايز ١٣٩٥/١٩٨٣. =

الرأي، لكنه آثر الخمول والإخلاص[1].

وُلِدَ داود بعد المائة بسنوات[2] في منطقة السَّواد[3] ونشأ فيها، ثم انتقل إلى الكوفة[4] وهو من أصل خراساني[5].

وغير ذلك، نلاحظ شحّاً بيّناً في المعلومات التي تتعلق بنشأة داود الأولى، وبأوضاع أُسرته التي تربّى في كنفها، ووجه الأهمية في ذلك، أنها تُلقي الأضواء على العوامل والظروف التي أثّرت، بشكل أو بآخر، في تكوين شخصية الرجل، الذي وصل في النهاية إلى مركز الصدارة في مجالي الفقه والعبادة.

والثابت لدينا؛ أن الطّائي قَدِمَ الكوفة وهو أقلّ مستوىً من الفقهاء المعاصرين، غير أن انضمامه إلى حلقة أبي حنيفة، وانكبابه على تحصيل العلوم؛ قلب الأمور رأساً على عقب، وأصبح في طليعة الأعلام، فقهاً وأدباً وزهداً وعبادةً. فقال أبو نعيم: «قَدِمَ

=(٥) محمد بن حبّان البستي، كتاب مشاهير علماء الأمصار، بعناية فلايشهمر، ص ١٦٨، القاهرة: مط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩/١٩٥٩.

(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ١٧٧؛ الوافي بالوفيات، ١٣/٤٩٥.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق علي أبو زيد، ٧/٤٢٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤٠٦/١٩٨٦. (لم تحدّد المصادر سنة ولادة داود الطّائي).

(٢) السّواد: ما حَوالي الكوفة من القرى والرّساتيق. لسان العرب (مادة سود).

(٣) أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٧/٣٦٠، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ٣، ١٤٠٠/١٩٨٠؛ ابن أبي الوفاء، ذيل الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، ٢/٥٣٦، حيدرآباد: الدكن، مط. دار المعارف النظامية، ط ١، ١٣٢٢.

(٥) ذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٦؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ٢/٣٣٥، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠.

داود من السواد ولا يفقه، فلم يزل يتعلّم ويتعبّد حتى سادَ أهل الكوفة»[1].

والجدير ذكره، أنه لم تكن حلقة أبي حنيفة هي الوحيدة التي اقتبس منها داود معارفه، ولكنه أخذ أيضاً عن جماعة من كبار التابعين منهم[2]: عبد الملك بن عُمَيْر[3]، وإسماعيل بن أبي خالد[4]، وحبيب بن أبي عمرة[5]، وسلمان الأعمش[6]، وحُمَيد الطَّويل[7]، وهشام بن عروة[8]. كما سمع من محمد بن

(١) ابن قدامة المقدسي، كتاب التوّابين، ص ٢٠٦، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٧. وقال محمد بن بشر: «قَدِمَ علينا داود الطّائي من السواد، فكنّا نضحك منه، فما مات حتى سادنا» (حلية الأولياء، ٧/٣٦٠؛ تاريخ الإسلام، ص ١٨٢).

(٢) انظر: أعلام النبلاء، ٧/٤٢٢؛ الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال، ص ٩٤.

(٣) أبو عمر الكوفي، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، مترجم في (تاريخ الثقات للعجلي، ص ٣١١، وتهذيب ابن حجر، ٦/٤١١).

(٤) أبو عبد الله الكوفي، وثّقه العجلي، وكان يسمى الميزان، له ترجمة عند الذهبي في (تذكرة الحفّاظ، ١/١٥٣، بيروت: دار الكتب العلمية؛ وتهذيب ابن حجر، ١/٢٩١).

(٥) كوفي، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة ذكره ابن شاهين في تاريخ أسماء الثقات، (تحقيق عبد المعطي قلعجي، ص ٩٩، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٦/١٩٨٦، تهذيب ابن حجر، ٢/١٨٨).

(٦) سبقت ترجمته.

(٧) أبو عبيدة الخزاعي البصري، المحدّث الثقة، مترجم في (تذكرة الحفّاظ ١/١٥٢؛ تهذيب ابن حجر، ٣/٣٨؛ حفّاظ السيوطي، ص ٧٢).

(٨) هشام بن عروة بن الزبير بن العوّام الأسدي المدني، قال ابن سعد: «كان ثقة ثَبْتاً حجّة» ترجم له الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد، ١٤/٣٧، بيروت دار الكتب العلمية، د.ت، تذكرة الحفاظ، ١/١٤٤).

عبـد الـرحمن بن أبي ليلى[1]، وسعـد بن سعيـد الأنصـاري[2]، وجماعة[3]، ويقال إن أكثر روايته كانت عن الأعمش[4].

وبالعودة إلى سِير هؤلاء الأعلام؛ نجـد أن معظمهم كـان من أصل كوفي، كما يوجد بينهم مَن هو من أصـل بصري، أو مـدني، وهذا يعني أنه كان على داود أن يرحل إليهم ليسمع الحديث منهم، أو لعلّه قد اجتمع بهم أثناء قدومهم إلى الكـوفة التي كـانت آنذاك: «قبّة الإسلام ومدينة العلم»[5].

والملاحظ؛ أن داود الطائي لم يكن يعشق الرحلات العلميـة والتنقـلات في أرجاء العـالم الإسلامي كغيـره من أئمـة الحـديث، وإنمـا كان يقضي معـظم وقته في الكـوفة، وذلـك لأسباب عـديـدة منها: انشغاله بدروس شيخه أبي حنيفة، وإقباله على السّماع من الشيوخ المُقيمين في المدينة والوافدين إليها، والأهم من ذلك كله، بسبب عـزلته الكبـرى التي أعلن فيها عن تـزهّده ومقـاطعته للنـاس وإقباله على العبادة.

وعلى الـرغم من ذلك؛ فقـد قام ببعض الـرحلات القـريبـة،

---

(١) تـاريخ بغـداد، ٨/٣٤٧؛ شمس الدين أحمـد بن خلّكان، وفيـات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ٢/٢٥٩؛ بيروت: دار الثقافـة، د.ت..

(٢) وثّقـه ابن سعد والعجلي وابن عمّـار وضعّفه أحمـد والنسائي. متـرجم في (تهذيب ابن حجر، ٣/٤٧٠).

(٣) المصدر نفسه، ٣/٢٠٣.

(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٦١ ـ ٣٦٧.

(٥) مروج الذهب، ٣/٤٢؛ تاريخ بغداد، ٩/٢٥٥، ٢٥٧.

فزار من خلالها بغداد عاصمة الخلافة العباسية[1] كما وأنه زار مدينة البصرة[2] وإن كان بعض المؤرّخين ينفون عنه ذلك[3]. والمُلفِت للنظر، أن المصادر لم تُشِر إلى رحلات قام بها إلى الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) وهما مؤمل العلماء المسلمين وعُبَّادهم[4].

٢ ـ مكانته الفكرية:

ذكرت المصادر أن داود الطائي كان جامعاً لمعظم علوم عصره، فقال ابن الملقن: «كان كبير الشأن، سمع الحديث، واشتغل بالفقه، ثم اختار العبادة والزهد، فبلغ منهما الغاية»[5]. وذكر آخرون أنه «كان ممّن شغل نفسه بالعلم، ودرس الفقه وغيره من العلوم»[6]، وأكّد هذه الحقيقة معاصره الإمام سفيان بن عُيينة فقال: «كان داود ممّن عَلِمَ وفَقِهَ...»[7].

---

(١) تاريخ بغداد، ٣٤٧/٨؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٥٩.

(٢) ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٩.

(٣) أعلام النبلاء، ٧/٤٢٥. قال الذهبي: «وليس يصحّ، ولا علمنا داود سار إلى البصرة» نفسه.

(٤) انظر: كتابنا الإمام سفيان بن عُيينة، ص ١٤٨، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤/١٩٩٣.

(٥) عمر بن علي بن الملقن، طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبه، ص ٢٠٠، بيروت: دار المعرفة.

(٦) تاريخ بغداد، ٣٤٧/٨؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٥٩؛ الجواهر المضيّة ١/٢٣٩.

(٧) تهذيب ابن حجر، ٣/٢٠٣.

غيـر أن هـذا لا يعني أن الـطائي كـان مجـرد عـالم بـالأمـور الفقهية، وإنما كان وبحسب رأي شمس الدين الذهبي: «أحد مَن برع في الفقه»[1]، وإلى جانب براعته بالفقه فقد كان ذا فنون عديدة[2]، وبشهادة الفضيل بن دكين: «كان من أفصح الناس وأعلمهم بالعربية»[3].

والواقع؛ أن هذه التصريحات وغيرها دفعتنا للبحث عن تلك العلوم والفنون التي كان يلمّ بها داود الطائي، وبالعودة إلى المصادر تبيّن لنا؛ أنه كان حافظاً لكتاب الله تعالى، وعالِماً بسُنّة رسول الله ﷺ، وبالآثار، والفقه، والنحو، والشعر، وأيام الناس[4]. وهذه العلوم قلّ ما تجتمع في شخصية واحدة، ولا سيما أن الطّائي قد اعتزل حلقات العلم مبكراً.

والحقيقة؛ أن عالِماً بهذا المستوى؛ يشكّل مادة دَسِمةً في دراسة أعلام الفقهاء والمحدّثين، ولكن من المؤسف أن تلك الآمال قد تلاشت حينما ثبت لدينا، أن الرجل عمد إلى كتبه فدفنها[5]، أو

---

(١) العِبَر في خبر مَن عَبر، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، ١/٢٣٨، الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠/ ١٩٦٣؛ شذرات الذهب، ١/٢٥٦.

(٢) عبد الرؤوف المنّاوي، الكواكب الدرّيّة في تراجم السادة الصوفية، بعناية محمود ربيع، ١/١٠٣، القاهرة: مطبعة الأنوار، ١٣٥٧/١٩٧٨.

(٣) أعلام النبلاء، ٧/٤٢٤.

(٤) تاريخ بغداد، ٨/٣٤٩؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠ قابل: طبقات ابن سعد، ٦/٣٦٧؛ ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٨٧.

(٥) البداية والنهاية في التاريخ، ١٠/١٤٥؛ تهذيب ابن حجر، ٣/٢٠٣.

غـرّقها في الفـرات[1] عنـدمـا اختـار العُـزلـة، وأقبـل على العبـادة وتخلّى.

وفي يقيني؛ أنه بهذا العمل، تسبّب، من غير قصـد، بتبديـد وإضاعة أمّهات كتب التراث، وهـذه خسارة لا تُعَـوّض على المكتبة العربية والعالم الإسلامي.

مهما يكن؛ فإن تلك المعارف التي كان يتقنها داود الطّائي؛ جعلت طلاب العلم يقصدونه للأخذ عنه، وفـوق ذلك؛ فـإن بعض كبار أئمة الحـديث راحوا يـروون أحاديثـه الصّحاح. من هؤلاء[2]: إسمـاعيل بن عُلَيَّـة[3]، وزافر بن سُليمـان[4]، ومُصعب بن المِقدام الخثـعمـي[5]، وإسحـاق بـن منصـور السَّـلُولي[6]، ووكـيـع بن

(١) تـاريخ بغــداد، ٨/٣٤٨؛ وفيـات الأعيــان، ٢/٢٥٩؛ أعـلام النبــلاء، ٧/٤٢٣.

(٢) عنهم؛ انظر: أعلام النبلاء، ٧/٤٢٣.

(٣) هـو إسماعيـل بن إبراهيم بن عُليـة ـ وهي أُمّه ـ بصـري، كان يسمّيـه شُعبة «ريحانة الفقهاء»، وقال ابن معين: «كان ثقة، مأموناً، ورعاً، تقيّاً». مترجم في: (تـاريخ بغـداد، ٦/٢٢٩؛ تـذكـرة الحفّـاظ، ١/٣٢٢؛ تهـذيب ابن حجر، ٢/٢٧٥).

(٤) أصله من قهستـان وولد بـالكوفـة ثم انتقل إلى بغـداد ثم إلىٰ الـريّ، كثيـر الغلط في الاخبـار واسع الـوهم في الآثـار على صـدق فيـه. (تهـذيب ابن حجر ٣/٣٠٤).

(٥) كوفي، متعبّد (تاريخ الثقات، ص ٤٣٠).

(٦) كوفي، متّفق على توثيقـه، أخرج لـه الجماعـة، مترجم في: (تهـذيب ابن حجر ١/٢٥٠).

الجـراح[1]، وأبـو نُعَيْم الفضـل بن دُكين[2]، وسفيـان بن عُيينـة الهلالي[3]، وعبد الله بن إدريس[4].

كمـا روى له النسـائي[5]، ويقال: إن أروى النـاس عنـه هـو مصعب بن المقدام[6].

بعـد عرض هـذه الحقائق عن سيـرة داود وقـدراتـه العلميـة، يجـدر بنـا أن نشيـر إلى ألقـابـه التي حَـظِيَ بهـا بين العلمـاء المعاصرين.

ذكـرت المصـادر، أن داود كـان في عـداد الأئمـة الفقهـاء

---

(١) أبو سفيان، كوفي، ثقة، عـابد صـالح أديب، من حفّـاظ الحديث. (ذكـره العجلي، ص ٤٦٤، مترجم في تذكرة الحفّاظ، ١/٣٠٦).

(٢) كـوفي، متّفق على توثيقـه، أخرج لـه الجماعـة، متـرجم في (تهـذيب ابن حجر، ٨/٢٧٠).

(٣) كوفي، ثقة، ثبت في الحـديث، كان يُعـدّ من حكماء أصحـاب الحديث، سكن مكة وكان حـديثه نحـواً من سبعة آلاف (تـاريخ الثقـات، ص ١٩٤؛ تاريخ بغـداد، ٩/١٧٤). وعن رواية ابن عُيينـة؛ انظر: محمـد البخاري، كتـاب التـاريـخ الكبيـر، ٢/٢٤٠، بيـروت: دار الكتب العلميـة د.ت؛ الجرح والتعديل، ٣/٤٢٦.

(٤) أبـو محمد الكـوفي، متّفق على توثيقـه، أخرج لـه الجماعـة، متـرجم في (تهذيب ابن حجر ٥/١٤٥). وعن روايـة ابن إدريس؛ انظر: تهـذيب ابن حجر، ٣/٢٠٣؛ الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال، ص ٩٤.

(٥) هو الحافظ، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي النسائي، نسبة إلى نسـاء، بلدة مشهورة بخـراسان، تـوفي سنـة ٣٠٣/٩١٦ (تهـذيب ابن حجـر، ١/٣٦ ـ ٣٩. وعن رواية النسائي لداود الطائي؛ انظر: الجواهـر المضية، ١/٢٤٠؛ الوافي بالوفيات ١٣/٤٩٥).

(٦) حلية الأولياء، ٧/٣٦١.

والمحـدّثين الأجـلّاء المُعتَـرَف بفضلهم وإخـلاصهم في الـعلم والعمل، فقال فيه الذهبي: «كان إماماً في العلم والعمل»[1]، وقال ابن أبي الوفاء: «هو الإمام الربّاني»[2]، ثم عاد الذهبي فجمع بين إمامته وفقهه فقال: «هو الإمام الفقيه»[3]، ثم استدرك قائلاً: «كان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل على شأنه..»[4].

والجدير بالملاحظة؛ أن الشيرازي صاحب كتاب «طبقات الفقهاء» ذكر داود الطائي في كتابه[5]، كما وأن ابن قتيبة قد ذكره في عداد «أصحاب الحديث»[6] ولم يُدرِجه بين «أصحاب الرأي»[7]. أما ابن النديم؛ فلم يأتي على سيرته في كتابه «الفهرست» من قريب أو بعيد، علماً بأنه قد خصّص باباً مستقلاً للفقهاء وأصحاب الحديث[8]، ولعلّ سبب ذلك يعود إلى أن ابن النديم كان مهتمّاً، بالدرجة الأولى، بأصحاب الكتب، ونحن نعلم أن داود الطّائي قد أتلف كتبه وفق ما قدّمناه سابقاً.

مهما يكن من شيء؛ فإذا كانت المصادر قد تفاوتت في مدى اهتمامها بالرجل بين ذكره في عداد طبقاتها أو تركه، فإنها اتفقت

---

(١) دول الإسلام، ص ٩٨.
(٢) الجواهر المضية، ١/ ٢٣٩.
(٣) أعلام النبلاء، ٧/ ٤٢٢؛ الكواكب الدرّيّة، ١/ ١٠٣.
(٤) أعلام النبلاء، ٧/ ٤٢٣؛ الوافي بالوفيات، ١٣/ ٤٩٥.
(٥) تحقيق إحسان عباس، ص ١٣٥، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠.
(٦) كتاب المعارف، ص ٢٨٧.
(٧) المصدر نفسه، ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠.
(٨) ص ٣١٤ ـ ٣٢٦، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

على أن أبا زكريا يحيى بن معين قد زكّاه ووثّقه[1]، وأيضاً لم يغبنه حقّه ابن حبّان فأدرجه بين ثقاته[2]، كما وثّقه ابن حجر في التقريب[3]، وأخيراً وثّقه الذهبي وحسم الأمر بقوله: «هو ثقة بلا نزاع»[4].

إن هذه الأمور مجتمعة تحثّنا لمعرفة ما كان يتمتع به داود الطائي من قدرات على مواجهة القضايا الفقهية، ويتجلّى ذلك بالطبع؛ من خلال الفتاوى التي كان يُصدِرها من حينٍ لآخر، بالإضافة إلى إجاباته عن التساؤلات التي كانت تشغل تفكير عامّة الناس وعلمائهم.

وقد توضّحت لنا هذه الأمور؛ بعد أن علمنا أن بعض كبار الفقهاء وأئمة الحديث كانوا يقصدونه للغاية نفسها، كأبي يوسف القاضي، وزُفَر أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة، ومحمد بن الحسن الأسدي[5].

---

(١) تاريخ بغداد، ٣٥٣/٨؛ البداية والنهاية في التاريخ، ١٤٥/١٠؛ الخزرجي، ص ٩٤.

(٢) تهذيب ابن حجر، ٢٠٣/٣.

(٣) تقريب التقريب، بعناية محمد عوامة، ص ٢٠٠، حلب: دار الرشيد، ط ١، ١٤٠٦/١٩٨٦.

(٤) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، ٢١/٢، ط ١، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٣.

(٥) للمزيد من التفاصيل؛ انظر: الفصل الثالث من هذا الكتاب؛ القسم المتعلّق بـ «رفض داود الإجابة عن مسائل الناس». ص ٥٨.

ثانياً ـ اعتزال داود حلقات العلم وفراره من الناس:

١ ـ اعتزاله حلقات العلم:

على الرغم من إهمال المصادر للكثير من الحقائق التي تعنينا عناية كبيرة في دراسة شخصية داود الطّائي، بخاصّة قدراته العلمية ونشاطاته الفكرية، فإننا نجد اهتماماً ملحوظاً بقضية اعتزاله حلقات العلم، ومن ثم تزهّده وإقباله على العبادة.

والملاحظ؛ بعد قراءة متأنية في سيرة أعلام الفقهاء والمحدّثين، أن العديد منهم كانوا يلجأوون إلى العزلة، بعد أن يبلغوا مركز الشّهرة في ميادين العلم والعمل، أمثال: سفيان الثّوري، وشُعبة بن الحجّاج، وسفيان بن عُيينة وغيرهم.

والواضح؛ أن داود قد آثر العزلة بعد أن سجّل تفوّقاً مميّزاً في المجالات العلمية، فلعلّه اكتفى بما توصّل إليه من تلك الفنون، وأخذ يحضّر نفسه لمقابلة ربّه، ويعدّ العُدّة لذلك، بإقباله على صنوف العبادات، بعد تزهّد وورع أصبحا مضرب الأمثال بين معاصريه، حتى أصبح قدوة لِمَن سلك بعده هذا الطريق المتوّج بالإيمان والتقوى.

وبشهادة الخطيب البغدادي[١]، وابن خلّكان[٢]، أن داود كان ممّن شغل نفسه بالعلم، ودرس الفقه، وغيره من العلوم، ثم

---

(١) تاريخ بغداد، ٣٤٧/٨.
(٢) وفيات الأعيان، ٢٥٩/٢.

اختار بعد ذلك العزلة، وآثر الانفراد والخلوة، فلزم العبادة واجتهد فيها إلى آخر عمره[1].

وذكر عبد الله السايح أنه لمّا تعبّد داود قال لنفسه مُعاتباً: «يا نفس! إن طلبت الدنيا بالقرآن أو بالحديث أو بالفقه أو بالشعر وأيام الناس، فأنت أنت وليس بعده الموت»[2].

إن هذه التصريحات وغيرها تدفعنا للبحث في هذا الجانب، الذي شغل حيّزاً لا بأس به في المصادر الأصيلة؛ وإن كانت المعلومات المدوّنة جاءت متقاربة حيناً، ومتكرّرة في معظم الأحيان.

والواقع؛ أن الروايات التي تتحدّث عن بدء أمر داود كثيرة، وأول ما يطالعنا منها، رواية علي بن المديني الذي قال: سمعت سفيان بن عُيينة يقول: «كان داود الطّائي ممّن علم وفَقُه، وكان يختلف إلى أبي حنيفة حتى تقدّم في ذلك الكلام[3]؛ فأخذ يوماً حصاة فحذف بها إنساناً، فقال له أبو حنيفة: يا أبا سليمان! طال لسانك، وطالت يدك، فاختلف بعد ذلك سنة لا يسأل ولا يجيب، فلما علم أنه يصبر عمد إلى كتبه فغرّقها في الفرات ثم أقبل على العبادة وتخلّى»[4].

---

(١) قال ابن سعد: «إن عزلته استمرت عشرين سنة أو أقلّ حتى مات» الطبقات الكبرى، ٦/٣٦٧.

(٢) ذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٦.

(٣) قال الوليد بن عقبة: «لم يكن في حلقة أبي حنيفة أرفع صوتاً من داود الطائي» (تاريخ بغداد، ٨/٣٤٨)، وهذا دليل تمكّنه من مادته.

(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٣٦؛ تاريخ بغداد، ٨/٣٤٧ ـ ٣٤٨؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٥٩؛ تاريخ الإسلام، ص ١٧٨؛ تهذيب ابن حجر، ٣/٢٠٣.

وأما رواية أحمد بن أبي الحواري فنجد فيها بعض الاختلاف عمّا ذكره ابن عُيينة، فقال: «إنما كان سبب زهد داود الطّائي، أنه كان يُجالس أبا حنيفة، فقال له أبو حنيفة: يا أبا سليمان! أما الأداة فقد أحكمناها. قال داود: فأيّ شيء بقي؟ قال: بقي العمل به. قال: فنازعتني نفسي إلى العزلة والوحدة، فقلت لها: حتى تجلسي معهم فلا تُجيبي في مسألة، قال: فكان يُجالسهم سنة قبل أن يعتزل. قال داود: فكانت المسألة تجيء وأنا أشد شهوة للجواب فيها من العطشان إلى الماء فلا أُجيب فيها. قال: فاعتزلتهم بعد»[1].

وإذا ما اختلفت الروايتان في سبب عُزلة داود فإنهما تتّفقان في أنه اعتزل الخوض في المسائل الفقهية لمدة سنة، «جَرَّب نفسه خلالها ودرّبها، حتى قَوِيَ على العُزلة»[2] بعدها قرّر أن تبدأ عُزلته الكبرى والتي استمرت حتى وفاته.

من جهة أخرى، ذكرت بعض المصادر روايات مُغايرة تماماً لِما أوردناه سابقاً، وهي لا تشير إلى عُزلة داود، وإنما تذكر أخباراً عن بدء توبته، وكأنما يريدون أن القول إنه كان ضالاًّ ثم تاب واهتدى.

قال الأزدي: «بلغني أن داود الطائي مرّ بامرأة تبكي عند قبرٍ وهي تقول: يا أخاه! ليت شعري:

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٤١ ـ ٣٤٢؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، بعناية رمضان واللحام، ٣/٨٦ ـ ٨٧، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٩/١٩٨٩.

(٢) أعلام النبلاء، ٧/٤٢٣؛ ذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٨.

بـأيٍّ خـدِّيـك تـبـدَّى الـبِـلى
وأيُّ عـيـنـيـك إذا سـالا

فصعِق مكانه ثم تعبّد[1].

وهناك رواية أخرى ذكرها الحمّاني قال: كان بدء توبة داود الطّائي أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مُـقـيـمٌ إلـى أن يَـبْـعَـثَ الـلَّهُ خَـلْقَـهُ
لِـقـاؤكَ لا يُـرجـى وأنـتَ قـريـبُ
تَـزيـدُ بـلى فـي كُـلِّ يَـومٍ ولَـيْـلَةٍ
وتُسلى كـمـا تَـبلَى وأَنْتَ حَـبـيـبُ[2]

إن جميع هذه الروايات وإن اختلفتْ في طريقة عرضها للأسباب التي آلت إلى عُزلة داود الطّائي أو توبته وزهده، فإنها تتوافق في أنه قد ترك ساحة العلم والعمل، واعتزل الناس جميعاً،

---

(١) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ٣٠٢/٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٣/١٩٢٥، قابل: عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوّف، ص ١٢، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت، وصفة الصفوة، ٨٧/٣؛ الجواهر المضية، ٢٤٠/١؛ طبقات الأولياء، ص ٢٠٠.

(٢) ابن قدامة المقدسي، كتاب التوّابين، ص ١٩٧؛ قابل: صفة الصفوة، ٨٧/٣، طبقات الأولياء، ٢٠٠.

وقد انفرد القشيري برواية جاءت على لسان أبي علي الدقّاق، فقال: «كان سبب زهد داود الطّائي أنه كان يمرّ ببغداد، فمرّ يوماً فنحّاه المطرقون بين يدي حميد الطوسي، فالتفت داود فرأى حميد، فقال داود: أفٍّ لدنيا سبقك بها حميد، ولزم البيت وأخذ في الجهد والعبادة». (الرسالة القشيرية، ص ١٢).

خاصّتهم وعامّتهم، علماءهم وجهّالهم، وتفرّغ للعبادة والمُناجاة والتأمّل والإخلاص.

وقبل أن نتطرّق إلى ممارسة داود للعبادة لا بدّ من أن نستعرض فلسفته في العُزلة وموقفه من الناس ورفضه الإجابة عن مسائلهم.

٢ ـ فلسفته في العُزلة:

الواضح؛ أن داود الطائي كان قد اعتزل مجتمع عصره بما فيه من حلقات العلم والمشاركة في ميدان العمل؛ بعد أن وصل إلى قناعة ثابتة أنه لا فائدة من مخالطة الناس، فمجالسهم بعيدة كلّ البعد عن أمر الآخرة، والزهد في الدّنيا وترك مفاتنها وشهواتها. ولكن إخوانه في تحصيل العلم، قد آلمهم ما آلت إليه حاله، فكانوا يأتونه بين الفينة والأخرى، مُعاتبين له ويدعونه للعودة إلى حلقته بغية ممارسة العلم والعمل به وفق كتاب الله وسُنّة نبيّه (ﷺ).

حَدَّثَ عُمير بن صدقة قال: «كان داود الطّائي لي صديقاً، وكنّا نجلس جميعاً في حلقة أبي حنيفة حتى اعتزل وتعبّد، فأتيته فقلت: يا أبا سليمان جفوتنا، فقال: يا أبا محمد ليس مجلسكم ذاك من أمر الآخرة في شيء، ثم قال: استغفر الله، استغفر الله، ثم قام وتركني»[(١)].

ولمّا أتاه محمد بن الحسن في الأمر نفسه أوضح له داود جوهر العُزلة ومساوىء مخالطة الناس، قال محمد: «أتيت داود

(١) حلية الأولياء، ٣٤٣/٧ ـ ٣٤٤؛ الكواكب الدرّية، ١٠٣/١.

الطائي لأسلّم عليه، فأذِنَ لي، فقعدت على باب الحجرة، فقلت: أنت وحدك هٰهنا رحمك الله؟ قال: رحمك الله وهل الأنس اليوم إلّا في الوحدة والانفراد؟ ما يتجمّل لك أو متجمّل له، ففي أيّ ذلك خير؟»[1]، وقال أيضاً: لمَن نجلس؟ لرجل يحفظ سقطك أو غلام يتنعتك[2].

كذلك كان الزاهد ابن السماك، يغار على داود الطّائي، ويحسب انسحابه من ساحة العطاء خسارة فادحة نزلت بالأمة، ولكن الطائي كان يزداد إصراراً على موقفه ويُجيب أصحابه بردود حازمة لا تقبل الجدل.

قال ابن السماك: كلّمت داود الطائي، قلت: لو جالست الناس؟ قال: «إنما أنت بين إثنين: صغير لا يوقّرك، وبين كبير يحصي عليك عيوبك»[3]، ثم أضاف قائلاً: «تركنا الذنوب، وإنّا نستحي من كثيرٍ من مجالسة الناس»[4]، وقال أيضاً: «قد مللنا الحياة لكثرة ما نفعل من الذنوب»[5] فقد حَسِبَ مخالطة الناس هي أساس كل بلاء. ولعلّه يقصد بذلك سَفَلَة الناس وأرذالهم، من غير أن يعني سادة الناس وكرامهم.

ولما جاءه أحد أصحابه وقال له حدّثنا: قال: «تريد أن أقعد

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ٧/٣٤٤، يتنعتك: يصفك.

(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٤٤؛ قابل: الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.

(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٥٩.

(٥) عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، المسمّى «واقع الأنوار في طبقات الأخيار» ١/٨٤، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩ هـ.

مثل المكتب مع قوم يتحفّظون سَقْطَ كلامي؟»[1]، وقيل لـه: «كنت تلازم أبا حنيفة وصحبه ثم اعتزلتهم؟ قال: إذا كنّا دهرنا في جمع الآلات فمتى يكون البناء؟»[2].

٣ ـ امتناعه عن استقبال الناس حتى العلماء منهم:

بعد أن انتهت فترة ملاحقة دواد من قِبَل أصحابه، ومحاولاتهم الفاشلة لإعادته إلى صفوفهم وحلقاتهم، تيقّن أنه قد ارتاح منهم، فأغلق بابه دونهم، وأعلن عن مقاطعته لسائر الناس بما فيهم كبار العلماء، فكان، والحالة هذه، لا يتورّع من أن يطلب منهم عدم المجيء إليه؛ حتى ولو كانوا يريدون أن يُذاكروه في الحديث النبوي الشريف.

حدّث أبو داود الحَفَري[3] عن جليس لداود الطائي قال: «كنتُ آتيه في عشرين ليلة فأُذاكره الحديث، فقال لي ذات يوم: ذاك الذي كنت تُذاكرني به لا تُذاكرني بشيء منه أبداً»[4].

بعد ذلك؛ طالت المقاطعة أبا داود نفسه فقال: قال لي داود الطّائي: «كنت تأتينا إذا كُنّا، ثم ما أُحبُّ أن تأتيني»[5].

---

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٤٨.
(٢) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.
(٣) هو عمر بن سعد بن عبيد أبو داود الحفري الكوفي، كان رجلاً صالحاً متعبّداً حافظاً لحديثه ثَبْتاً، وكان أبو نعيم يأتيه ويعظّمه، وقد وثّقه ابن معين وابن وضاح. (تهذيب ابن حجر، ٧/٤٥٢).
(٤) طبقات ابن سعد، ٦/٣٦٧.
(٥) أعلام النبلاء، ٧/٤٢٤؛ تاريخ الإسلام، ص ١٨٢.

ومثل هذا الأمر حدث لأبي أسامة الكوفي[1]، وسفيان بن عُيينة، والفضيل بن عياض[2].

قال أبو أُسامة: «جئتُ أنا وابن عُيَينة إلى داود الطّائي، فقال: جئتماني مرة، فلا تعودا إليّ»[3]، وقال عبد الله بن خبيق: «أتى فضيل بن عياض داود الطّائي يعوده، فقال له: أقلل من زيارتي فإنني خليت الناس»[4].

ولعلّ الفضيل لم يقنع بما قاله له داود الطائي لهذا فقد عاود زيارته له، ولكنه لم يلقَ منه إلاّ الصدود والهجران، قال محمد بن بشر العبدي: «جاء فضيل يوماً فلم يفتح له، فجلس فضيل خارج الباب، وهو داخل، فبكى داود من داخل وفضيل من خارج، ولم يفتح له»[5]، فقال له: «دلّني على رجل أجلس إليه، قال: تلك ضالّة لا توجد»[6]. فقيل لمحمد بن بشر: كيف لم يفتح له الباب؟ قال: «كان يفتح لهم، وكثروا عليه فغموه فحجبهم كلهم، فمَن جاءه كلّمه من وراء الباب»[7].

---

(١) هو حمّاد بن أُسامة بن زيد القرشي، متّفق على توثيقه، وكان يُعدّ من حكماء أصحاب الحديث. (ثقات العجلي، ص ١٣٠؛ تهذيب ابن حجر، ٢/٣).

(٢) كوفي ثقة، رجل صالح ومتعبّد، سكن مكة حتى وفاته سنة ١٨٧/٨٠٣، (تهذيب ابن حجر، ٨/٢٩٤).

(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٤٢؛ صفة الصفوة، ٣/٨٧؛ أعلام النبلاء، ٧/٤٢٤؛ تاريخ الإسلام، ص ١٧٨.

(٤) ذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٨؛ قابل: الحلية، ٧/٣٥٥.

(٥) حلية الأولياء، ٧/٣٥٣.

(٦) ذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٨.

(٧) صفة الصفوة، ٣/٨٩.

والملاحظ؛ أن الطائي لم يقف عند رفضه استقبال أبي داود الحَفَري وأبي أسامة وابن عُيينة والفضيل بن عياض وإنما زهد كذلك في استقبال سفيان الثّوري أمير المؤمنين في الحديث[1].

قال أبو خالد الأحمر[2]: «مررت أنا وسفيان الثّوري بمنزل داود الطّائي، فقال لي سفيان: ادخل بنا نسلّم عليه، فدخلنا عليه فما احتفل بسفيان، ولا انبسط إليه، فلما خرجنا، قلت: يا أبا عبد الله! غاظني ما صنع بك، قال: «وإيش صنع بي؟» قلت: لم يحفل ولم ينبسط إليك، قال: «إن أبا سليمان لا يُتّهم في مودّته، أما رأيت عينيه، هذا في شيء غير الذي نحن فيه»[3].

ولعلّ داود كان يجد نفسه أنه ليس أهلاً للزيارة حتى يُزار من قِبَل الناس، وقد عبّر هو عن ذلك خلال حواره مع بعض زوّاره وقاصِديه.

ذكرت المصادر[4]؛ أنه دخل عليه رجل فقال له: «ما حاجتك؟ قال: جئت لزيارتك، فقال: أما أنت فعلت خيراً حين زرت، ولكن انظر ما ينزل بي أنا، إذا قيل لي: من أنت لتُزار؟!. أمن الزهّاد أنت؟ لا والله! أمن العبّاد؟! لا والله!. أمن الصالحين! لا والله!. ثم أقبل يوبّخ نفسه ويقول: كنت في الشبيبة فاسقاً، ولما شِبْت صرت مُرائياً، والله لا المرائي شرّ من الفاسق».

(١) عن سيرته؛ انظر كتابنا الإمام سفيان بن سعيد الثّوري، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٢/١٩٩٢.
(٢) هو سليمان بن حبّان الكوفي، متّفق على توثيقه، أخرج له الجماعة، مترجم في (تهذيب ابن حجر، ٤/١٨١).
(٣) تاريخ الثقات للعجلي، ص ١٤٩؛ صفة الصفوة، ٣/٩١.
(٤) طبقات الأولياء، ص ٢٠١؛ الكواكب الدرّية، ١/١٠٤.

٤ ـ رفضه الإجابة عن مسائل الناس:

الثابت؛ من خلال الأخبار المتواترة أن داود الطّائي كان متضلّعاً في الأمور الفقهية، وكان مُلِمّاً إلماماً كبيراً بتفسير آيات القرآن الكريم؛ لهذا كان الناس يستفتونه في المسائل المعقّدة التي تُقلِقهم، غير أنه عاد، بعد عُزلته الكبرى، فغيّر سيرته ورفض الإجابة عن مسائل الناس.

فمن الأمور التي حفظت المصادر إجاباته عنها؛ ما رواه ظفر بن عبد الرحمن فقال: قلت لداود: «يا أبا سليمان ما ترى في الرمي فإني أُحبّ أن أتعلّمه؟ قال: إن الرميَ لحَسَن، ولكن هي أيامك فانظر بِمَ تقطعها»(١).

ورُوِيَ أنه قَدِمَ البصرة(٢) فاجتمع إليه الناس، وقالوا: قال أبو حنيفة قدر الدّرهم لا يمنع الصلاة فمن أين قاله: قال: «الحمد لله، لم يقل الإمام شيئاً إلّا سار به في الأمصار، أراد به الدرهم فكنّى عنه بالدرهم»(٣).

والملاحظ؛ أن بعض إجاباته كانت لا تخلو من الدعابة والتهكّم والسخرية، فعندما سُئِلَ عن الرجل يصلّي في القميص وهو محلول الإزار؟ قال: «إذا كان عظيم اللحية فلا بأس به»(٤).

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٣٦؛ صفة الصفوة، ٣/٩٣؛ الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) قضية ذهاب داود الطّائي إلى البصرة مرفوضة قطعاً من قِبَل المؤرّخ شمس الدين الذهبي، (تاريخ الإسلام، ٢/١٨٤؛ أعلام النبلاء، ٧/٤٢٥).

(٣) ذيل الجواهر المضية، ٢/ ٥٣٩.

(٤) الجواهر المضية، ١/ ٢٤٠، وذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٧.

وفي بعض الأحيان كان يجد نفسه مضطراً للإجابة عن بعض المسائل خصوصاً إذا كان السائل من أعلام رجال الحديث، أو أن الإجابة عنها تعود بالفائدة على أبناء الأمة وليس فقط من أجل الحديث معه والأخذ من وقته الذي أوقفه للعبادة:

حدّث أبو يوسف القاضي[1] قال: «اختلفت مع زفر فيما رويت عن الإمام - أبي حنيفة - فقال بيني وبينك داود، فدخلنا عليه، فثقل عليه دخولنا لديه لِما فيه من الشغل بالعبادة، فقلنا له: المسألة، فقال: كان الإمام يقول فيه بقول زُفَر، فكلمناه فيه فرجع إلى قول أبي يوسف. ثم سأله أبو يوسف عن مسألة في «كتاب الرهن» مشكلة، فلم يجبه، فلما قمنا ناداه ومرّ فيه مسرعاً كالسهم، وقال: لولا أنه يسبق إلى فكرك أني تركت الفكر في مثل هذا ما جئتك أبداً»[2].

من جهة أخرى؛ حدّث محمد بن الحسن[3]، قال: «كنت آتي داود الطّائي في بيته فأسأله عن المسألة، فإن وقع في قلبه أنها مما أحتاج إليه لأمر ديني أجابني فيها؛ وإن وقع في قلبه أنها من مسائلنا هذه؛ تبسم في وجهي وقال: إن لنا شغلاً، إن لنا شغلاً»[4].

---

(١) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه وأول مَن نشر مذهبه، كان فقيهاً حافظاً، وُلِدَ بالكوفة، ووُلّي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد ومات في خلافته وهو على القضاء، (تذكرة الحفّاظ، ١/٢٩٢؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ٩/٢٥٢).

(٢) ذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٧.

(٣) محمد بن الحسن الأسدي، كوفي لا بأس به (ثقات العجلي، ص ٤٠٣).

(٤) الجواهر المضية، ١/٢٤٠؛ الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.

وأما المسائل التي انقطع جوابه فيها؛ فتأتي في طليعتها تجربة صديقه زائدة بن قدامة[1] والتي تحدّث عنها سفيان بن عُيينة. فقال: «كان زائدة صديقاً لداود، وكان يعلم أنه يجيب في آية من القرآن يفسّرها ﴿ **آلم * غُلِبَت الرُّومُ * في أدنى الأرض** ﴾[2]، فأتاه فصلى إلى جنبه، فلما انفتل قال: يا أبا سليمان: ﴿ **الم * غُلِبَت الرُّومُ** ﴾، فقال: يا أبا الصّلت! انقطع الجواب فيها، انقطع الجواب فيها مرتين»[3].

ومن الآيات القرآنية التي لم يجب عن تفسيرها وكيفية قراءتها، ما حدّث عنه محمد بن العزيز التيمي قال: «قال رجل لداود الطائي: كيف تقرأ هذا الحرف؟ ﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾[4] أو (ترى الجمعان)؟ قال: غير هذا أنفع منه»[5].

والحقيقة؛ إذا كنّا نؤيّد داود الطائي في بعض مواقفه ومقاطعته للناس، فإننا لا نستسيغ هروبه وفراره من مواجهة قضايا القرآن الكريم والكشف عن غوامضه، لِما في ذلك من فائدة لمبادىء الإسلام والأخذ بيد المؤمنين منهم حتى لا يضلّوا السبيل.

ومهما كانت حجّة داود في ذلك، فهناك بعض المسائل التي كان يتهرّب من الإجابة عنها بحكمة ودراية، من هذا القبيل ما ذكره

---

(١) أبو الصّلت الكوفي، أحد الثقات الأثبات الأئمة، متّفق على توثيقه. (تهذيب ابن حجر، ٣٠٦/٣؛ السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ١٩٢).

(٢) سورة الروم، آية: ٢ ـ ٤.

(٣) تاريخ بغداد، ٣٤٨/٨؛ قابل: حلية الأولياء، ٣٣٦/٧.

(٤) سورة الشعراء، آية: ٦١.

(٥) حلية الأولياء، ٣٥٧/٧.

عبد الله بن محمود بن سلمة، فقال: «لَقِيَ داود الطائي رجلاً فسأله عن حديث، فقال: دعني فإني أُبادر خُروج نفسي»(١).

ولمّا سأله حفص عن حُميد عن مسألة فقال له: «أليس المحارب إذا أراد أن يلقى الحرب أليس يجمع له آلته؟ فإذا أفنى عمره في جمع الآلة، فمتى يحارب؟ إن العلم آلة العمل، فإذا أفنى عمره فيه فمتى يعمل؟»(٢).

والملاحظ؛ أن داود الطّائي كان صلباً في قراراته، وعنيداً إزاء موقفه الذي اتخذه، والآيل إلى اعتزاله الناس، وعدم الإجابة عن مسائلهم، لهذا نجده لا يستجيب للضغوطات التي كانت تُمارَس عليه، ولما يدارِ الوسطاء الذين كانوا يأتونه من حينٍ لآخر متشفّعين لبعض السؤال.

روى صاحب الحلية(٣)، أن الحسن بن عطية قَدِمَ الكوفة، فأراد أن يسأل عن مسألة، فتوسّل برجل من الطائيين، فدخل على داود وهو معه، فجعل حسن يسأل داود عن المسألة وداود ساكت عنه لا يردّ عليه شيئاً، فلما أعاد عليه ذلك مراراً فلم يردّ عليه داود شيئاً قام فخرج، وبقي الطّائي قاعداً، فقال له: «يجيئك ابن عمّ لك يسألك عن مسألة لا تُجيبه؟» فلما أكثر عليه قال: ﴿ **فإذا نفخ في الصّور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾(٢).

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٣٥ ـ ٣٣٦؛ صفة الصفوة، ٣/٩٠؛ أعلام النبلاء، ٧/٤٢٣.

(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٤١.

(٣) أبو نعيم، ٧/٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٤) سورة المؤمنون، آية: ١٠١.

إلى جانب ذلك؛ كان بعض أصحاب الحديث يلجأون إلى شتّى السُّبُل للاجتماع بداود، بغية سماع أحاديثه أو التزوّد بالحكمة والنصيحة. عن ذلك حدّث محمد بن عثمان الصيرفي فقال:

«جاء أبو الربيع الأعرج إلى داود الطّائي في واسط ليسمع منه شيئاً ويراه. فأقام على بابه ثلاثة أيام لا يصل إليه. قال: وكان إذا سمع الإقامة خرج فإذا سلّم الإمام وثب فدخل منزله».

قال: «فصلّيت في مسجد آخر ثم جئت فجلست على بابه، فلما جاء ليدخل الدار قلت: ضيف رحمك الله. قال: إن كنت ضيفاً فادخل، فدخلت فأقمت عنده ثلاثة أيام لا يكلّمني. فلما كان بعد ثلاث قلت: رحمك الله أتيتك من واسط وإني أحببت أن تزوّدني شيئاً. قال: صُم الدنيا واجعل فطرك الموت. قلت: زِدْني رحمك الله. قال: فرّ من الناس فرارك من الأسد، غير طاعن عليهم، ولا تاركٍ لجماعتهم. قال: فذهبت أستزيده فوثب إلى المِحراب وقال: الله أكبر»[1].

فهذه مجمل المواقف التي عبّر داود الطّائي من خلالها عن عُزلته وفراره من الناس، وبطبيعة الحال، فهو لم يَنْحُ هذا المنحى إلّا بعد مُعاناة مع مجتمعه، الذي اضطره في نهاية المطاف إلى اختيار هذه الطريق الذي يعتبرها البعض من أسهل الطُّرُق، وهي بالحقيقة أصعبها وأشدّها قساوة على صاحبها الذي حبس نفسه في بيته فلا محدّث له ولا جليس معه يؤنسه، وقد هجر الأصحاب

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٥١؛ صفة الصفوة، ٣/٨٧ ـ ٨٨؛ ذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٨؛ قابل: حلية الأولياء، ٧/٣٤٢، ٣٤٥.

والخِلّان؛ فلا زوجة تخفّف عنه آلامه وأحزانه، ولا ولد يأخذ بيده في ساعات الضّيق. فهذا لعمري الجهاد الأكبر، الذي جاء على لسان رسول الله (ﷺ)، ألا وهو جهاد النفس وردعها عن غيّها وسجنها قبل أن تُسْجَن وتعذيبها قبل أن تُعَذَّب.

الفصل الثالث

داود الطّائي ونشاطه الديني

١ ـ عبادته وتقواه:

كان داود الطّائي رجلاً عابِداً من الطراز الأول، ويكفيه زهداً وتضحية أنه ترك مجده العلمي واختلى في دارته يمارس فيها العبادة، قاطعاً كل صلة تربطه بالحياة الدنيوية. وقد اتفقت المصادر على أنه بعد تفوّقه بالعلم، اختار العُزلة، وتفرّغ للعبادة حتى وفاته[١]، فقال الذهبي: «بعد أن برع داود في العلم؛ أقبل على شأنه، ولزم العبادة، وآثر الخمول، وفرّ بدينه»[٢]. فهو «العابد الطاوي»[٣]، و«العابد الزاهد»[٤]، وفوق ذلك كله: هو أحد الأولياء المذكورين بالخير والصلاح[٥].

والمُلاحَظ؛ أن العبادة الحقّة في نظر داود لها مفهومها الخاصّ، فهي تتطلّب المروءة، وبدونها لا يمكن أن تكون عبادة خالصة، فقال: «لا عبادة لمَن لا مروءة له»[٦]، ويرى أيضاً أن

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٤٧؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٥٩.

(٢) أعلام النبلاء، ٧/٤٢٣.

(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٣٥.

(٤) طبقات الأولياء، ٢٠٠.

(٥) أعلام النبلاء، ٧/٢٤٤.

(٦) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٠.

العبادة تتطلّب التفـرّغ التامّ، فقـال: «كلّ مـا شغلك عن ربّك فهـو عليك مشؤوم»[1].

وعلى الرغم من تفانيه في التعبّد، وذوبانه في الذات الإلّهية، فقد كان يتحسّر على ما فاته من العبـادة لهذا كـان يقول: «سبقني العابدون، وقُطِعَ بي، والهفاه»[2]، وكان يعاتب نفسـه ويقول: «قـد مللنا الحياة لكثرة ما نفعل فيها من الذنوب»[3].

وكما كان لداود مواقف واضحة من العبادة؛ فقـد كان لـه رأيه الصـريح في التقـوى التي يمنّ بها الله عـزّ وجلّ على مَن يشـاء من عباده، فسُمِعَ يقول: «ما أخـرج الله عبداً من ذلّ المعـاصي إلى عزّ التقوى، إلّا أغناه بلا مال، وأعزّه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس»[4].

ولعـلّ داود قد أجهـد نفسه بـالعبادة وحَمّـل جسمـه أكثـر من طاقته حتى ظهر أثر ذلـك عليه. قـال عبد الـرحمن بن مصعب: «ما شبّهت فِقـار ظهـــر داود إلّا جرابـاً فيه جـوز قـد أبـان من الجـراب هكذا»[5].

إن هذه الشواهد وغيره تدفعنا لاستعراض النشاط الـديني عند داود الـطائي الذي كـان عَلَماً من أعـلام الأمة في العبـادة والتقـوى والـزّهـد والـورع. والعبادة في الـواقـع؛ هي محصلة للعـديـد من

---

(١) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.
(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٣٦؛ صفة الصفوة، ٣/٩١.
(٣) طبقات الشعراني، ١/٨٤.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٥٦؛ صفة الصفوة، ٣/٨٧؛ قـابل: طبقـات الأولياء، ٢٠١؛ الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.
(٥) حلية الأولياء، ٧/٣٤٨.

النشـاطـات التي يـمـارسهـا الـعـابـدون المـخلصـون لـربّـهم ولمبادئهم.

وتتمثّل العبادة عند داود في العديد من الميادين، يأتي في طليعتها الصلاة بما فيها من مُناجاة وشكر وابتهال وتلاوة القرآن الكريم، ثم الصوم، والانفاق على المحتاجين من الأيتام والمساكين وأبناء السبيل، وغير ذلك من الأمور التي تُعوّد النفس وتدرّبها على الطاعة والإيثار والعُزُوف عن مباهج الدنيا. غير أننا لم نلحظ أيّة إشارة تتناول إقبال داود على أداء فريضة الحج أو موقفه من الجهاد في سبيل الله؛ علماً أن مُعاصريه من الأئمة الفقهاء كانت لهم مواقف واضحة إزاء تلك القضايا[1].

وإذا كانت المصادر قد أهملت الحديث عن اهتمام داود بالحجّ والجهاد؛ فإنها أشارت بوضوح إلى أنه كان معنيّاً عناية كبيرة بالصلاة، ولا سيما صلاة الجماعة التي بقي متمسكاً بها، على الرغم من اعتزاله ومقاطعته للناس، وقد أوصى أحد أصحابه قائلاً له: «. . . اجتنب الناس غير تارك لجماعتهم»[2].

وبملاحظة معاصِري داود؛ فقد كان يصلّي عامّة ليله لا يهدأ[3]، قال أبو خالد الأحمر: «بلغني أنه كان لا ينام الليل، إذا غلبته عيناه احتبى قاعداً»[4]. وقيل: «إنه كان يبدأ بالصلاة بعد

(١) عن اهتمام الفقهاء بأداء فريضة الحج؛ انظر: كتابنا سفيان بن عُيينة، ص ١٤٨. وعن الجهاد انظر كتابنا الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، ص ٩٨ وما بعدها، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١/١٩٩٠.

(٢) تاريخ بغداد، ٣٥١/٨؛ صفة الصفوة، ٨٨/٣؛ وفيات الأعيان، ٢٦١/٢.

(٣) حلية الأولياء، ٣٥٦/٧؛ الكواكب الدرّيّة، ١٠٤/١.

(٤) وفيات الأعيان، ٢٦١/٢.

إفطاره، ويستمر في ذلك حتى يُصبح»[1]. وقال أحد أصحابه: «دخلت معه الدار فصلّى ما شاء الله»[2].

ولعلّ داود لم يكن مقتنعاً بما يؤدّيه من أنواع العبادات، فعلى الرغم من تفانيه في الصلاة، وتفرّغه لها، نجده يتطلّع إلى المزيد منها، لهذا كان يقول: «ما حسدت أحداً على شيء إلاّ أن يكون رجلاً يقوم الليل؛ فإني أُحبّ أن أُرزَق وقتاً من الليل»[3].

وفوق ذلك؛ فقد كان داود في صلاته خاشعاً، ذليلاً، مهموماً، حتى أنه لم يكن يشعر بكل ما يدور حوله، فهو بين يدي الجليل، والموقف يتطلّب منه أكثر من ذلك.

قال أبو خالد الطّائي: «ذهبت أنا وأبي إلى داود الطّائي نسلّم عليه، أو في شيء، فرأيته يصلّي فوقعت شُرفة من المسجد، فوقعت بالقرب منه؛ فما رأيت داود تأهّب لها، ولا فَزِعَ بل أقبل على صلاته»[4].

وحدّث قبيصة بن عقبة قال: «حدّثتني جارية لداود الطّائي، قالت: مكث داود عشرين سنة لا يرفع رأسه إلى السماء»، وأضاف قبيصة: «قد رأيته كان متخشّعاً جداً»[5].

---

(١) ذيل الجواهر المضية، ٢/٥٣٧.

(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٤٥.

(٣) تاريخ بغداد، ٨/٣٥١؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦١.

(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٥٨.

(٥) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٢؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦١.

وقال أبو نعيم الفضل بن دُكَين: «رأيت داود الطّائي تـدور في وجهـه نملة عـرضـاً وطـولاً لا يفـطن بهـا ـ يعني من الهمّ والحـزن والتفكّر ـ»[1].

وتطرّق عبد الأعلى بن زياد إلى تفكّر داود فقـال: «رأيت داود الطّائي يوماً قائمـاً على شاطىء الفـرات مبهوتـاً، فقلت: ما يـوقفك هـهنـا يا أبـا سليمـان؟ قـال: انـظر إلى الفُلْك[2] كيف تجـري في البحر مسخّرات بأمر الله تعالى»[3].

وعن التفكّر الذي كان يغلب على داود إلى حدّ أنه كان يُنسيه نفسه، فيتوه في قُـدرة الخالق مما يعرّض حيـاته للتهلكـة، تحدّث إسحاق بن خلف فقال:

«كـان داود الطّائي في ليلة مُقمِـرة متفكّراً، فقـام فمشى على السطح وهو شاخص حتى وقع في دار جارٍ له، قال: فوثب صاحب الـدار عريـاناً من الفـراش، فأخـذ السيف ظنّ أنه لصّ، فلمـا رأى داود. . . أخـذ بيـده حتى ردّه إلى داره. فقيـل لـداود، فقــال: مـا دريت أو ما شعرت»[4].

ولعلّ التفكّر كان موضوعاً مهمّـاً لدى المحـدّثين المُعاصـرين لذا عالجوه من شتّى جوانبه ليعرفوا مدى تـأثيره في شخصيـة داود، بـالنتيجة تبيّن لهم أنـه هو الأسـاس في السيطرة على نفسـه، وكبح جماحها.

---

(١) حليـة الأوليـاء، ٣٦٠/٧؛ صفـة الصفـوة، ٩٤/٣؛ الكـواكب الـدرّيّـة، ١٠٤/١.
(٢) الفُلْك: السفينة واحدٌ وجَمْعٌ يُذَكّر ويُؤَنّث. (مختار الصحاح، ص ٥١١).
(٣) حلية الأولياء، ٣٥٦/٧؛ الكواكب الدرّيّة، ١٠٤/١.
(٤) حلية الأولياء، ٣٥٨/٧.

قال عثمان بن زُفَر، حدّثني سعيد؟ قال: «كان داود شديد الانقباض، يعالج نفسه بالصمت، وكان قبل ذلك كثير الكلام، وكانت معالجته نفسه في ترك الكلام، فأخرجته تلك المعالجة إلى التفكّر، فبالتفكّر ملك نفسه...»[1].

وبشهادة جيرانه؛ أنه كان يقطع ليله بالصلاة والمُناجاة ومعاتبته نفسه، وقد أعطتنا جارته أُمّ سعيد الطّائية[2] صورة حيّة عن عبادته فقالت: كان بيننا وبين داود الطّائي حائط قصير، فكنت أسمع حنينه عامّة الليل لا يهدَأ، قالت: وربما سمعته في جوف الليل يقول: «اللّهمَّ: همُّك عطّل عليّ الهموم، وحالف بيني وبين السُّهاد، وشوقي إلى النّظر إليك، أوبق [3]مني، وحال بيني وبين اللذّات، فأنا في سجنك أيّها الكريم مطلوب»[4].

وعن مُناجاته حدّث محمد بن هشام عن أبي عبد الرحمن قال: «كان داود الطّائي يُحيي الليل صلاة. ثم يقعد بحذاء القِبلة فيقول: يا سواد ليلة لا تضيء، ويا بُعْد سفر لا ينقضي، ويا خلوتك بي تقول داود ألم تَستَحِ؟»[5].

وكان يقول في مُناجاته: «إن للخوف تحرّكات تعرف في

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٤٢.

(٢) كان سعيد بن علقمة من نسّاك النخع، المصدر نفسه، ٧/٣٥٦.

(٣) أبق العبد يأبِق ويأبُق أي هرب. (مختار الصحاح، ص ٢).

(٤) تاريخ بغداد، ٨/٣٥١ ـ ٥٢؛ صفة الصفوة، ٣/٩٣؛ قابل: عيون الأخبار، ٢/٢٩١؛ حلية الأولياء، ٧/٣٥٦ ـ ٣٥٧؛ تاريخ الإسلام، ص ١٨٠.

(٥) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٣.

الخائفين، ومقامات يعرفها المحبّون، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون، وأين أولئك؟ أولئك هم الفائزون»(١).

وقيل: إنه كان لا يتجرّأ أن يسأل الله الجنّة حياءً منه ويقول: «وددت أني أنجو من النار وأصير تراباً»(٢).

والواضح؛ أن انشغال داود بالصلاة والمُناجاة والتفكّر لم يُنسه تلاوة القرآن الكريم الذي كان مهتمّاً به اهتماماً كبيراً، فإلى جانب تفسيره لآياته التي اعتزل الخوض فيها، بعد تفرّغه للعبادة، فقد كان منكبّاً على قراءته وترتيله، وقد أنعم الله عليه بصوت شجيّ كان موضع إعجاب أصحابه وجيرانه.

قال عبد الله بن المبارك: «كان داود إذا قرأ القرآن كأنه يسمع الجواب من ربّه»(٣)، وأكدت هذا الأمر جارته أُمّ سعيد الطّائية، فقالت: «لربما ترنّم في السّحر بشيء من القرآن، فأرى أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنّمه تلك الساعة»(٤).

ومن شدّة إقباله على القرآن كان يفضّل شرب الفتيت(٥) على مضغ الخبز لأنه يشغله عن المرور في الآيات. عن ذلك حدّث

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٤٦.
(٢) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٣.
(٣) ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٤٠.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٥٧؛ تاريخ بغداد، ٨/٣٥٢؛ صفة الصفوة، ٣/٩٣؛ أعلام النبلاء، ٧/٤٢٤؛ تاريخ الإسلام، ص ١٨١.
(٥) فُتَاتُ الشيء ما تكسّر منه، والفتيت من الخبز. (مختار الصّحاح، ص ٤٨٩).

إسماعيل بن زبّان قال: قالت داية[1] داود الطّائي له: «يا أبا سليمان! أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية»[2].

كذلك لاحظ داود الفرق في عدد الآيات التي كانت تفوته حين تناوله الخبز اليابس أو الخبز الليّن، قال إسماعيل الأحمس: قلت لداود الطّائي: «بلغني أنك تأكل هذا الخبز اليابس تطلب به الخشونة؟ فقال: سبحان الله! كيف؟ وقد ميّزت بين أكل الخبز اليابس وبين الليّن، فإذا هو قدر قراءة مائتي آية. ولكن ليس لي مَن يخبز فربما يبس علي»[3].

وأما بالنسبة لاهتمامات داود بفريضة الصوم، فقد تبيّن أنه كان صوّاماً قوّاماً طاوياً مقلِّلاً على نفسه[4]، وكان في صومه متكتّماً، حتى إنه أخفى ذلك عن أقرب الناس إليه من أهله وأصحابه. قال ابن أبي عديّ: «صام داود الطّائي أربعين سنة، ما عَلِمَ به أهله، وكان خزّازاً[5]، وكان يحمل غداءه معه ويتصدّق به

(١) الداية: الظِّئْرُ وهي العاطفة على غير ولدها، المُرضِعَةُ له. (لسان العرب، مادة دوا) و(مادة ضأر).
(٢) وفيات الأعيان، ٢/٢٦١، قابل: حلية الأولياء، ٧/٣٥٠؛ تاريخ بغداد، ٨/٣٥٣، الرسالة القشيرية، ص ١٣، صفة الصفوة، ٣/٩٢؛ كتاب التوّابين، ص ١٩٧، وقد انفرد صاحب ذيل الجواهر المضيّة بأن داود قال: «ما بين مضغ الخبز وشرب السويق قدر خمسين آية أقرؤها». (٢/٥٣٧).
(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٥٠ ـ ٣٥١.
(٤) المصدر نفسه، ٧/٣٤٩.
(٥) بائع الخز وهو ضرب من ثياب تُنسَج من صوف وإبْرَيْسم. لسان العرب، (مادة خزز).

في الطريق، ويرجع إلى أهله يفطر عشاء لا يعلمون أنه صائم»[1].

ولعلّ داود صبر على كل ذلك بفضل إيمانه القوي، ومبادئه التي كان يؤمن بها، وهي مستقّاة من وحي القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وسُنّة السّلَف الصالح. فكان يقول: «صُمْ الدنيا وافطر على الموت، حتى إذا كان عند المعاينة أتاك رضوان الخازن بشربة من ماء الجنة تشربها على فراشك، فتخرج من الدنيا وأنت ريّان لا تحتاج إلى حوض من حِياض الأنبياء حتى تدخل الجنة وأنت ريّان» [2].

٢ ـ زهد داود وورعه:

كما كان داود الطّائي رأساً في العبادة والتقوى؛ فقد كان رأساً في الزهد والورع والتقشّف، وبشهادة الذهبي فقد كان: «عديم النظير زهداً وصلاحاً»[3]. وقال في ميزان الاعتدال: «كان من كبار الزهّاد»[4]، وقال صاحب طبقات الفقهاء: «كان من أصحاب أبي حنيفة، ثم غلب عليه الزهد فاشتغل به»[5]، ويرى ابن حبّان «أنه كان ممّن تخلّى وتزهّد، وتجرّد فتعبّد، وقنع بلزوم الفقر الجهيد، والحمل على النفس الشديد»[6]، وقيل إنه تزهّد وتعبّد حتى صار في المجاهدة فحلاً من الفحول[7].

(١) تاريخ بغداد، ٨/ ٣٥٠؛ صفة الصفوة، ٣/ ٨٩؛ وفيات الأعيان، ٢/ ٢٦٠.
(٢) حلية الأولياء، ٧/ ٣٥٢؛ الكواكب الدرّيّة، ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٣) العِبر، ١/ ٢٣٨؛ شذرات الذهب، ١/ ٢٥٦.
(٤) الذهبي، ٢/ ٢١.
(٥) الشيرازي، ص ١٣٥.
(٦) مشاهير علماء الأمصار، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٧) الكواكب الدرّيّة، ١/ ١٠٣.

أ ـ زهده، أقوال ومواقف:

لو تركنا أقوال العلماء جانباً، وتتبّعنا مراحل زهد داود الطّائي، نجده حينما قرّر ممارسة الزّهد، ترك عمله في دكّانه، وهجر أصحابه وخلّانه، وحرّم على نفسه الزواج والاستئناس بالعِيال، ولما عاتبه أصحابه في ذلك قال: «كفى باليقين زُهداً، وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شُغلاً»(١).

ولما سأله أحد أصحابه عن الصفات التي يتميّز الزاهدون بها، قال: «من علامة المُريدين الزاهدين في الدنيا؛ ترك كل جليس لا يريد ما يريدون»(٢). ثم قال له: «توحّش من الدنيا كما تتوحّش من السّباع»(٣). وقال: «كمال الزّهد في الدنيا ترك مُجالسة أهلها وعيادتهم إذا مرضوا إلّا بنيّة خالصة عن العلل»(٤).

وعلى الرغم من ثقل وطأة الزهد على داود، الذي طوّع نفسه على مجاهدة الشهوات واللذّات ليبلغ درجة الزاهدين الوَرِعين؛ نجده غير مقتنع بما آلت إليه حاله، فهو يتطلّع إلى المزيد من التقشّف والتعفّف حتى يستحقّ عن كثب لقب «زاهد».

قال إسحاق بن منصور السَّلولي: «دخلت وصاحب لي على داود الطّائي وهو على التراب، فقلت لصاحبي: هذا رجل زاهد، فقال داود: إنما الزاهد مَن قدر فترك»(٥).

---

(١) حلية الأولياء، ٣٤٣/٧؛ تاريخ الإسلام، ص ١٧٩.
(٢) حلية الأولياء، ٣٤٤/٧؛ قابل: طبقات الشعراني، ٨٤/١.
(٣) حلية الأولياء، ٣٤٣/٧.
(٤) الكواكب الدرّيّة، ١٠٣/١.
(٥) حلية الأولياء، ٣٤٤/٧؛ صفة الصفوة، ٨٨/٣.

ودخل عليه أبو يوسف القاضي فقال له: «ما رأيت أحدا رضي من الله بمثل ما رضيت به. فقال: يا يعقوب! مَن رضي بالدنيا كلها عوضاً عن الآخرة، فذاك الذي رضي بأقلّ مما رضيت»[1].

وقيل إن هذا الحوار حصل مع حمّاد ابن الإمام أبي حنيفة فقال له: يا أبا سليمان لقد رضيت من الدنيا باليسير، قال: أفلا أدلّك على مَن رضي منها بأقلّ من ذلك؛ مَن رضيَ بالدنيا عوضاً عن الآخرة»[2].

ووعظ أصحابه ناصحاً إياهم بترك مباهج الدنيا، فقال: «سبيل الناس كلهم إلى الموت، فمَن أبغض الدنيا تبعته، ومَن أحبها قلته، ومَن وثق بها خذلته، فاتّقِ الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت»[3].

والزهد في الدنيا، برأي داود، هو قصر الأمل لهذا قال: «لو أملت أن أعيش شهراً لرأيتني قد أتيت عظيماً، وكيف أؤمّل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق ليلاً ونهاراً». وقال أيضاً: «مَن خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومَن طال أمله ضعف عمله، وكلّ آتٍ قريب»[4].

لو تركنا الناحية النظرية، في موقف داود الطّائي من الزهد، وانتقلنا إلى الناحية العملية؛ نجده كان زاهداً في المأكل والمشرب

(١) صفة الصفوة، ٣/٩٣؛ الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.
(٢) ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٩؛ قابل: حلية الأولياء، ٧/٣٥٣؛ طبقات الأولياء، ٢٠٢.
(٣) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٥.
(٤) المصدر نفسه، ١/١٠٤، ١٠٥.

والملبس والزواج، وكلّ ما في الحيّاة من لذّات وشهوات ما حُلِّل منها وما حُرِّم. وقبل أن نعرض إلى تلك القضايا، لا بدّ من الإشارة إلى أن الوضع المادّي لداود الطّائي كان متفاقماً، فهو في تردٍّ مستمر ولا يعود ذلك إلى قصر ذات اليد بقدر ما يعود إلى تورّعه عن أخذ ما ورثه عن بعض أقربائه وقدره مائة ألف درهم[١]، وكذلك انقطاعه عن ممارسة عمله في دكّانه، واقتناعه بالعيش بما ورثه عن أهله. ومن خلال استعراض تلك التَرِكَة؛ نستطيع أن نكوِّن فكرة واضحة عن مستوى المعيشة التي فرضها داود الطّائي على نفسه.

الواقع؛ أن المصادر قد اختلفت في مقدار المبلغ الذي ورثه داود الطّائي؛ فمنهم مَن حدّده بثلثمائة درهم وفق ما ذكره الخطيب البغدادي[٢]، وابن خلّكان[٣]، ومنهم مَن جعله أربعمائة درهم استناداً إلى رواية أبي نعيم[٤]، وابن الجوزي[٥]، والصفدي[٦]. كما اختلفت المصادر في تعيّن الجهة التي ورث منها تلك الثروة فمنهم مَن جعلها تَرِكة أمّه وفق المصادر الآنفة الذكر، والبعض الآخر جعلها تَرِكَة أبيه، فعن عثمان بن زُفَر قال: أخبرني ابن عمّ لداود الطّائي قال: «ورث داود الطّائي من أبيه عشرين ديناراً فأكلها

---

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٢.
(٢) المصدر نفسه، ٨/٣٤٨.
(٣) وفيات الأعيان، ٢/٢٥٩.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٤٦.
(٥) صفة الصفوة، ٣/٩١.
(٦) الوافي بالوفيات، ١٣/٤٩٥.

في عشرين سنة، كلّ سنة ديناراً، منه يأكل، ومنه يتصدّق»[1].

والذين نسبوا ثروته إلى أُمه اعتمدوا على رواية حفص بن عمر الجُعْفي الذي قال: «كان داود الطّائي قد ورث من أُمّه أربعمائة درهم، فمكث يتقوّتها ثلاثين عاماً[2]، فلما نفذت، جعل ينقض - أي يخرّب - سُقُوف الدُوَيْرة[3] فيبيعها، حتى باع الخشب والبواري[4] واللَّبِن، حتى بقي في نصف سقف»[5].

وقيل إنه باع غلاماً له ببعض الدنانير فكان ينفقها على نفسه؛ وورث من أبيه دنانير فكان ينفق منها حتى كُفّن بآخرها[6].

ومهما اختلفت هذه الروايات، فجميعها تتّفق على أن الثروة التي اعتاش منها داود زهيدة جداً ولا سيما إذا ما علمنا أنه أنفقها في عشرين أو ثلاثين سنة مما يبيّن أن الرجل ظلّ زاهداً وَرِعاً ومقصراً على نفسه حتى نهاية حياته.

مهما يكن من أمر؛ فالواضح أن داود قد حَمَّل نفسه فوق ما تطيق، فأجهدها بالعبادة، وبالمقابل حرّم عليها لذيذ الطعام وبارد

(١) حلية الأولياء، ٣٤٧/٧؛ صفة الصفوة، ٩٢/٣؛ قابل: الرسالة القشيرية، ص ١٢

(٢) منهم من قال إنه عاش بها عشرين سنة، تاريخ بغداد، ٣٤٨/٨؛ وفيات الأعيان، ٢٥٩/٢.

(٣) الدويرة: تصغير الدار.

(٤) البواري، جمع بارية، أي الحصير المنسوج من القصب. (مختار الصحاح، ص ٦٩).

(٥) حلية الأولياء، ٣٤٦/٧؛ صفة الصفوة، ٩١/٣؛ تاريخ الإسلام، ص ١٧٩ - ١٨٠؛ الوافي بالوفيات، ٤٩٥/١٣ - ٤٩٦.

(٦) حلية الأولياء، ٣٤٦/٧ - ٣٤٧.

الشراب، وبشهادة ابن السماك[1] فإنه «لم يأكل من الطعام طيّبه ومن الماء بارده»[2]. واقتصر على أصناف قليلة من المآكل، فكان يتناول الخبز، والفتيت، والملح، وأحياناً يأخذ التمر واللبن والجزر، وأما شرابه فلم يتعدّ الماء البارد في الشتاء والحارّ في الصيف، وقد تعدّدت الروايات التي تحدّثت عن زهده في الطعام والشراب، وإن اختلفت في مضامينها غير أنها أجمعت على أن وجبته الأساسية لم تكن تزيد على الخبز وقليل من الملح.

رُوِيَ أنه دخل عليه رجل فوجده يأكل ملحاً جريشاً بخبز يابس، فقال له: كيف تشتهي هذا؟! قال: أدعه حتى أشتهيه»[3].

وبحسب رواية أبي سليمان الداراني[4]، فإن داود «كان يأكل خبزه على ثلاثة أصناف ـ أوله سخن ـ وأوسطه تكرج[5]، وآخره يابس يبلّه في مطهره له». قال: «وكان له دنّان[6]، دنّ للماء ودنّ

---

(١) هو محمد بن صبيح بن السماك، يكنّى أبا العباس، ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة وقال إنه كوفي استوطن بغداد ثم عاد إلى بلده ومات فيها سنة ١٨٣/٧٩٩. (٣/١١٥ ـ ١١٦).

(٢) وفيات الأعيان، ٢/٢٦٢.

(٣) طبقات الأولياء، ٢٠٢.

(٤) أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني، وداران قرية بدمشق، أحد الزهّاد المذكورين بالخير والمجاهدة، مات سنة ٢١٥/٨٣٠. (الرسالة القشيرية، ص ١٥).

(٥) تكرج الخبز: فسد وعَلَتْه الخُضرة.

(٦) الدنّ واحد الدّنّان، وهي الحِبَابُ واحدتها «الحُب»، أي الجرّة الكبيرة أو الخابية. (مختار الصحاح، ص ٢١٢).

للخبز، فأما دنّ الماء فكان قد جعله في الأرض لئلاّ يصيبه الروح فيبرد»[1].

وقد برّر داود سبب أخذه الخبز اليابس فقال: «...ليس لي مَن يخبز، فربما يبس علي»، وكانت وجبته لا تزيد عن رغيفين. قال بكر بن محمد العابد: «قلت لداود: تأكل في اليوم رغيفاً؟ قال: نعم اثنين، قلت: تشبع؟ قال: نعم»[2].

ويؤكّد الوليد بن عقبة صحّة هذه الروايات فيقول: كان يُخبز لداود الطّائي ستّون رغيفاً يعلّقها بشريط، يُفطِر كل ليلةٍ على رغيفين بملح وماء...»[3]. وتحدّث مُضيفه أبو الربيع الأعرج عن تناوله إحدى وجباته فقال:

«دخلت على داره، فأخرج رغيفين يابسين، فجلس، فقال لي: ادْنُ فكُلْ، فأشفقت عليه أن آكل معه، فأكل ثم قام إلى شن[4] في الدار في يوم صائف فأخذ يشرب منه، فقلت: يا أبا سليمان! لو أمرت مَن يبرّد لك هذا الماء، فقال لي: أما علمت أن الذي يُبرّد له الماء في الصيف ويُسَخّن له في الشتاء لا يحبّ لقاء الله؟»[5].

---

(١) حلية الأولياء، ٣٤٨/٧ ـ ٣٤٩.
(٢) المصدر نفسه، ٣٥١/٧ ـ ٣٥٢.
(٣) صفة الصفوة، ٨٨/٣.
(٤) الشَّن والشَّنَّة: القِرْبة الخَلَقُ وجمعه شِنَان. (مختار الصحاح، ص ٣٤٨).
(٥) حلية الأولياء، ٣٤٥/٧.

ويبدو أن أبا الربيع الأعرج كان له أكثر من لقاء مع داود، فلعلّه كان يتردّد عليه كلما قَدِمَ الكوفة، حدّث ذات مرة قال: «دخلت على داود الطّائي بيته بعد المغرب، فقدّم لي كسرات يابسة، فعطشت فقمت إلى دَنٍ فيه ماء حارّ، فقلت: رحمك الله! لو اتخذت دنّاً غير هذا يكون فيه الماء بارداً، فقال لي: إذا كنت لا أشرب إلّا بارداً، ولا آكل إلّا طيّباً، ولا ألبس إلّا ليّناً، فما أبقيت لآخرتي؟»[1].

وفي رواية أخرى؛ عاتبه أحد أصحابه على تردّي حاله، وتشدّده على نفسه، فأجابه قائلًا: «جُب[2] حيري، وجرّة مدارية، وقِلال[3] منقّشة، وجارية حسناء، وأثاث وناض[4]، وفضول، لو أردت هذا الذي يشغل القلب ما سجنت نفسي هٰهنا، إنما طلّقت نفسي عن هذه الشهوات، وسجنت نفسي حتى يُخرِجني مولاي من سجن الدنيا إلى روح الآخرة»[5].

ولمّا استحكم الزهد بداود الطّائي؛ أخذ يتشدّد يوماً بعد آخر، حتى حرّم عليها كلّ ما تستطيبه وقد تعدّدت الروايات التي تناولت هذا الجانب، ربما لما له من تأثير في نفوس المؤلّفين القدامى، الذين تناولوا سِيرته باهتمام بالغ، فذكروا أنه حرّم على نفسه التمر والجزر وحتى الملح.

---

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٠؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠ ـ ٢٦١.
(٢) الجُب: البئر التي لم تطْوَ أي لم تُبْنَ بالحجارة. (مختار الصحاح، ص ٩١).
(٣) قِلال وقُلَل جـ قُلّة، وهي الجرّة الكبيرة. (المصدر نفسه، ص ٥٤٩).
(٤) قال أبو حاتم: يعني بالناض الدنانير والدراهم. (حلية الأولياء، ٧/٣٥١).
(٥) المصدر نفسه، المكان نفسه.

حدّث إسماعيل بن حسّان قال: «جئتُ إلى باب داود الطّائي فسمعته يخاطب نفسه، فظننت أن عنده أحداً يكلّمه، فأطلتُ القيام على الباب، ثم استأذنت فدخلت، فقال: ما بَدَا لك في الاستئذان عليّ؟ قلت: سمعتك تتكلم فظننت أن عندك أحداً، قال: لا! ولكن كنتُ أُخاصم نفسي؛ اشتهت البارحة تمراً، فخرجتُ فاشتريت لها، فلما جئت به اشتهت جزراً، فأعطيت الله عهداً أن لا آكل تمراً ولا جزراً حتى ألقاه»[1].

ولدينا رواية أخرى تتحدّث عن سبب تحريم داود التمر على نفسه، قال مصعب بن مقدام: «أرسلني داود الطّائي بطبري[2] أشتري له به تمراً، فلما كان بعد ذلك جئته، فجاء فجلس إلى جنبي، فقال: من أين اشتريت هذا التمر؟ قال: فظننت أنه يعيبه، فقلت: ما له يا أبا سليمان؟ فوالله ما ودعت شيئاً أجود من شيء اشتريته لك، فقال: استطبته فحلفت أن لا آكل تمراً أبداً»[3].

وذكر الوليد بن عقبة رواية أخرى فقال: «أخذ داود ليلة فطره، فجعل ينظر إليه. قال: ومولاة له سوداء تنظر إليه، فقامت فجاءته بشيء من تمر على طبق فأفطر ثم أحيى ليله وأصبح صائماً. فلما جاء وقت الإفطار أخذ رغيفه وملحاً وماءً وجعل يعاتب نفسه ويقول: اشتهيت البارحة تمراً فأطعمتك، واشتهيت الليلة تمراً؟ لا

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٥٠؛ تاريخ بغداد، ٨/٣٤٩؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠.

(٢) نسبة إلى طبرستان.

(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٥٠.

ذاق داود تمراً ما دام في الدنيا»[١]، قال محمد بن إسحاق في حديثه: «فما ذاقها حتى مات»[٢].

ومهما كانت حقيقة هذه الروايات التي وإن اختلفت في بعض تفاصيلها، فإنها اتفقت على أن داود الطّائي قد حرّم على نفسه تذوّق التمر وهو أقلّ ما تطلبه النفس ويتقوّت به الجسد.

وأما عن تحريم داود على نفسه تناول الملح، فقد حدّث عنه محمد بن بشير فقال: «دخلت على داود الطّائي المسجد فصلّيت معه المغرب ثم أخذ بيدي فدخلت معه البيت، فقام إلى دنٍّ له كبير، فأخذ رغيفاً منه يابساً فغمسه في الماء ثم قال: ادْنُ فكُلْ؟ قلت: بارك الله لك، فافطر فقلت: يا أبا سليمان! لو أخذت شيئاً من ملح، قال: فسكت ساعة ثم قال: إن نفسي تنازعني ملحاً، ولا ذاق داود ملحاً ما دام في الدنيا، قال: فما ذاقه حتى مات»[٣].

ومثلما زهد داود الطّائي في الطعام والشراب كذلك زهد في اللباس، كما وأنه أهمل مظهره الخارجي، فقال ابن السماك: إنه «. . .لم يلبس اللّيّن»[٤]. ويؤكد هذا الأمر ما ذكره عبد الرحمن بن مصعب، قال: رُؤِيَ على داود الطّائي جُبّة[٥] متخرّقة، فقال له رجل: لو خيّطتها؟ قال: «أما علمت أنه نهى عن فضول النظر»[٦].

---

(١) صفة الصفوة، ٣/٨٨.

(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٤٩.

(٣) المكان نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ٧/٣٥٢.

(٥) الجُبّة: ضرب من مقطعات الثياب تُلبس، وجمعها جُبب وجِبات. لسان العرب، (مادة جبب).

(٦) حلية الأولياء، ٧/٣٥٢.

ولعلّه كان هذا ردّه دائماً عندما يجد نفسه مُحرَجاً أمام تدخّلات الآخرين. قال معاوية بن عمر: كنّا عنده يوماً فإذا بفَرْوه قد تخرّق وخرج خمله، فقال له بعض مَن حضر: لو أذِنْتَ لي خيّطته، فقال: «كانوا يكرهون فضول الكلام»(١).

مهما يكن، فالواضح وفق ما ذكره الفضل بن دكين وهو شاهد عَيان أنه كان «يلبس قَلَنْسُوَةً سوداء طويلة مما يلبس التجار»(٢).

وعن زهده في مظهره الخارجي حدّث الوليد بن عقبة قال: «سمعت رجلاً قال لداود الطّائي: يا أبا سليمان ألا تسرّح لحيتك؟ وكانت مفتّلة، قال: إني عنها مشغول»(٣). وبالطبع فهو مشغول عنها بالعبادة والتفكّر، ولمّا وجّه له السؤال مرة أخرى قال: «الدنيا دار مآثم»(٤). والوقت لا يتّسع لنا لقضائه بالتوافه؛ بل بالاستعداد والترقب!؟.

وأما عن زهده في العمارة فقد ذكر أبو سليمان الداراني أنه ورث من أُمّه داراً، فكان يتنقّل في بيوت الدار، كلما تخرّب بيت من الدار انتقل منه إلى آخر، ولم يَعْمُرْهُ حتى أتى على عامّة البيوت التي في الدار(٥). وقيل: إنه كان ينقض سقوف الدار ويبيعها حتى بقي في نصف سقف(٦).

(١) صفة الصفوة، ٣/٩٤.
(٢) طبقات ابن سعد، ٥/٣٦٧؛ تاريخ الإسلام، ص ١٧٩.
(٣) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٠؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠؛ تاريخ الإسلام، ٢/١٨١.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٣٩.
(٥) تاريخ بغداد، ٨/٣٤٨؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٥٩.
(٦) الوافي بالوفيات، ١٣/٤٩٥ - ٤٩٦.

ورُوِيَ أنه دخل عليه رجل من أصحابه وعاتبه في ذلك فقال له: «يا أبا سليمان بعت كل شيء في الدار حتى التراب وبقيت تحت نصف سقف! فلو سوّيت هذا السقف، فكان يكنّك،[1] من الحرّ والمطر والبرد، فقال داود: اللّهمَّ عفواً، كانوا يكرهون فضول الكلام، يا عبد الله أخرج عنّي فقد شغلت قلبي، إني أُبادر جفوف القلم وحليّ الصحيفة»[2].

وقال له رجل: «يا أبا سليمان! ففي هذا الحرّ أين تنام وليس لك سطح؟ قال: إني أستحي من مولاي أن يراني إخطو خطوة ألتمس راحة نفسي في الدنيا، حتى يكون مولاي هو الذي يُريحني من الدنيا وأهلها»[3].

وحدّث أحمد العجلي قال: «أتيت داود الطّائي وهو في دار واسعة خَرِبَة ليس فيها إلاّ بيت، وليس على بيته باب، فقال له بعض القوم: أنت في دار وحشة، فلو اتخذت لبيتك هذا باباً أما تستوحش؟ فقال: حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدنيا»[4].

وذكر عبد الله بن المبارك أنه قيل لداود ـ وحائطه قد تصدّع ـ لو أمرت برمّه؟ فقال داود: «كانوا يكرهون فضول النظر»[5].

ومثل هذا الجواب الحاسم سمعه منه معاوية بن عمرو فقال: «كنّا عند داود الطّائي يوماً، فدخلت الشمس من الكوّة، فقال له

---

(١) الكن: السترة، والجمع أكنان (مختار الصحاح، ص ٥٨٠).
(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٥١؛ قابل: الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.
(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٥١ ـ ٣٥٢.
(٤) المصدر نفسه، ٧/٣٤٣.
(٥) تاريخ بغداد، ٨/٣٤٩.

بعض مَن حضر: لو أذِنْتَ لي سددتُ هذه الكُوّة. فقال: كانوا يكرهون فضول النظر»[1].

ودخل إليه يوماً رجل، فقال: «إن في سقف بيتك جزعاً قد انكسر، فقال: يا ابن أخي! إني في هذا البيت منذ عشرين سنة، ما نظرت إلى السقف. وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام»[2].

وفوق ذلك؛ فقد كان يعيش وحده في الدار وكان لا يُسرَج عليه[3]، كما أنه لم يكن يهتم بتنظيف بيته وترتيبه، عن ذلك حدّث عُبادة بن كُليب، قال: قال رجل لداود الطّائي: لو أمرت بما في سقف البيت من نسيج العنكبوت فينظّف، قال له: «أما علمت أنه كان يُكرَه فضول النظر؟»[4]، ثم أضاف قائلاً: «نُبِّئْتُ أن مجاهداً[5] كان في سقف بيته خشبة مكسورة لم يشعر بها مدّة ستّين سنة»[6].

كذلك زهد في ما يقتنيه الناس في دُورِهم حتى إنه كتفى بأقلّ ما يحتاجه المرء في حياته اليومية، فكان يقول لأصحابه: «إياكم أن يتّخذ أحدكم في داره أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة»[7].

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٦٠ ـ ٦١؛ صفة الصفوة، ٣/٩٤.
(٢) كتاب التوّابين، ص ١٩٧.
(٣) أعلام النبلاء، ٧/٤٢٤؛ الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤؛ قابل: تاريخ الإسلام، ص ١٨١.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٥٢.
(٥) هو مجاهد بن جبر المكّي أبو الحجّاج، تابعي، ثقة سكن الكوفة بآخره (ثقات العجلي، ص، . ـ ؛ تهذيب ابن حجر، ١٠/٢٤).
(٦) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.
(٧) طبقات الشعراني، ١/٨٤.

وبطبيعة الحال؛ أن رجلاً تفرّغ للعبادة، وابتعد عن كل ما يشغله عن الخلوة بربّه، كان لا بدّ أن يتزهّد في كل متع الحياة بما فيها الزواج والعِيال، وإن كان في ذلك مخالفة واضحة لمبادىء الإسلام، والسُّنّة الشريفة التي رسمها الرسول (ﷺ) لأبناء أُمّته إذ إنه لا رهبنة في الإسلام.

فذكر أنه مكث أربعاً وستّين سنة أعزب، فقيل له كيف صبرت على النساء؟ قال: «قاسيت شهوتهنّ عند إدراكي سنة، ثم ذهبت شهوتهنّ من قلبي»[1]، وعلّق أبو سليمان الداراني على ذلك بقوله: «فنرى أنه مَن صبر عنهنّ عند إدراكه سنة لم يعرفهنّ حلالاً ولا حراماً، إنه يكفي مؤنتهنّ»[2].

ولما عُوتِب في التزويج وقيل له: «لو تزوّجت»، فقال: «كيف بقلبٍ ضعيفٍ لا يقوى بهمّه، ويجتمع عليه همّان»[3].

فالزواج بنظر داود هَمٌّ من هموم الدنيا ومَن يصبر على تركه يُريح نفسه من هذا العناء، وإن كنّا نجد في هذا الموقف مخالفة لمبادىء الشرع؛ فإن صديقه الإمام سفيان الثّوري كان يقول: «إذا تزوّج الرجل فقد ركب البحر، فإذا وُلِدَ له انكسر المركب»[4]. وقال أيضاً: «مَن أحبّ أفخاذ النساء لم يفلح»[5] ولكنه سرعان ما

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٤٩؛ طبقات الشعراني، ١/٨٤؛ الكواكب الدرّيّة ١/١٠٣. والحقيقة أننا لم نقدر أن نثبت أنه عاش أربعاً وستّين سنة وإنما عاش حوالي الستّين سنة فقط.

(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ٧/٣٥٦؛ تاريخ الإسلام، ص ١٨٠

(٤) الكواكب الدرّيّة، ١/١١٦.

(٥) أعلام النبلاء، ٧/٢٥٨.

يستدرك ويقول: «كثرة النساء ليست من الدنيا لأن عليّاً كرّم الله وجهه كان من أزهد الصحابة وكان له أربع نسوة وتسع عشرة سَرِيّة»[1]. والمصادر تشهد بأن الثّوري كان قد تزوّج وأنجب عِيالاً في حين نجد أن داود الطّائي بقي أعزباً طِوال حياته.

بالإضافة إلى ذلك؛ كان داود في زهده مؤمناً بما قدّره الله له، ولا يحاول تبديل الأمور التي فرضتها ظروف الطبيعة عليه، وكلّ ذلك خشية أن يُغضِب الله عزّ وجلّ.

فحينما آذته أشعة الشمس قالت له أُخته: «لو تنحّيت عن الشمس إلى الظلّ، فقال: هذه خُطى لا أدري كيف تُكتب»[2]، وفي يوم بارد قيل له: «لو خرجت إلى الشمس»، فقال. «إني لا أشتهيه، ولكنها خطالاً أحتسبها»، ولم يخرج[3]، وفي مناسبة أخرى، دخل عليه أحد أصحابه، فرأى جرّة ماء قد انبسطت عليها الشمس، فقال له: «ألا تحملها إلى الظلّ؟! فقال: حين وضعتها لم يكن شمس، وأنا أستحي من الله أن يراني أمشي لِما فيه حظّ نفسي»[4].

وحدّث شعيب بن حرب فقال: «دخلت على داود الطائي فأكربني الحرّ في منزله، فقلت: لو خرجنا إلى الدار نستروح، فقال: إني لأستحي من الله أن أخطو خطوة لذّة»[5].

---

(١) طبقات الشعراني، ١/٥٤.
(٢) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٠؛ صفة الصفوة، ٣/٩٤؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠.
(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٥٥.
(٤) طبقات الأولياء، ٢٠٢؛ قابل: الرسالة القشيرية، ص ١٣.
(٥) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٠، قابل: حلية الأولياء، ٧/٣٥٥.

من خلال هذه الشواهد نتبيّن أن داود الطائي كان مقلّلاً على نفسه بل حمّلها فوق ما تطيق، وهذه المواقف تتعارض مع زهد سفيان بن عُيينة محدّث الحرم المكّي، الذي كان في زهده معتدلاً، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «الزهد فيما حرّم الله، فأما ما أحلّ الله، فقد أباحكه الله، فإن النبيين قد نكحوا وركبوا وأكلوا، ولكن الله نهاكم عن شيء فانتهوا عنه وكانوا به زهّاداً»[1].

ب ـ ورع داود الطّائي:

الورع هو أول طريق الزهد[2]، وهو «ملاك الدين، واستكمال الآخرة»[3]، وهو أيضاً: من فيض النفوس الكبيرة العامرة بالصبر والإيمان والتقوى؛ لذا لا يملكه المرء إلّا بعد جهد جهيد يقضيه في مصارعة الحياة ومكابدة الشهوات، والبُعد عن الشُّبُهات، ولامتلاكه لا بدّ من الانصهار في التأمّل والصمت الطويل، لهذا كان أحد الفقهاء يقول: «عليك بطول الصمت تملك الورع»[4].

وبالعودة إلى سِيرة داود الطّائي نجده منسجماً مع تلك المبادىء إلى حدٍّ كبير، فكما كان قدوة في الزهد والعبادة، فهو كذلك أستاذ في الورع، وعفّة النفس والبُعد عن المحرّمات والترفّع عن الشُّبُهات، فلما سُئِلَ الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك في

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٢٩٧.
(٢) الرسالة القشيرية، ص ٥٣.
(٣) حلية الأولياء، ٧/٢٤.
(٤) المصدر نفسه، ٧/٨٥.

باب الورع قال: «الأمر ما كان عليه داود الطّائي»[١] وبشهادة غير واحد أنه كان كبير الشأن في ميدان الزهد والورع[٢].

وحدّث بشر الحافي[٣] عن الرجال الورعين، واستشهد بقول المعافى بن عمران الذي قال: «كان عشرة[٤] فيمن مضى من أهل العلم ينظرون في الحلال النظر الشديد لا يدخلونه بطونهم إلاّ ما يعرفون من الحلال، وإلاّ استفّوا التراب...»[٥]، وكان داود الطّائي في عداد هؤلاء الرجال.

ولكي نتبيّن مدى انسجام ورع داود الطّائي مع تلك المبادىء؛ لا بدّ من أن نستعرض نماذج من نهج داود في الحياة وسلوكيته مع الآخرين.

فالملاحظ؛ وفي أحيانٍ كثيرة، أن داود الطّائي كان يرتاب حتى من المال الحلال الذي يُكسب بعرق الجبين. فعلى الرغم من شرعية ممارسة مهنة التجارة، التي سبق وتعاطاها رسول الله ﷺ

---

(١) أحمد بن حنبل، كتاب الورع، ص ٥، دون نشر، د.ت.
(٢) طبقات الشعراني، ١/ ٨٤.
(٣) هو بشر بن الحارث المروزي أبو نصر الزاهد المعروف بالحافي روى عن حمّاد بن زيد وعنه أحمد بن حنبل، كان كثير الحديث إلاّ أنه لم ينصّب نفسه للرواية، متّفق على توثيقه مات ببغداد سنة ٢٢٧/ ٨٤٢. (تهذيب ابن حجر، ١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).
(٤) عدّد بشر ثمانية رجال فقط هم: «إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، وعلي بن الفضيل، وأبو معاوية الأسود، ويوسف بن أسباط، ووهيب بن الورد، وحذيفة شيخ من أهل خراسان وداود الطائي». كتاب الورع، ص ٧.
(٥) المكان نفسه.

والسلف الصالح، فإننا نجده يرفض الاتجار وحتى أن يُتاجر له أحد أقاربه أو أصحابه؛ خصوصاً إذا كان مستوى الربح يفوق ما يقرّ به الشرع ويرتضيه الضمير المِهَني.

حدّث عطاء بن مسلم الحلبي قال: «عاش داود الطّائي عشرين سنة بثلاثمائة درهم ينفقها على نفسه، فأتاه ابن أخيه فقال: يا عمّ تكره التجارة؟ قال: لا! قال: أعطني شيئاً أتجر به، قال: فأعطاه ستّين درهماً، قال: فمكث شهراً ثم جاءه بعشرين ومائة درهم، فقال: هذه ربحها، قال: أنت كل شهر تربح للدّرهم درهماً؟ ينبغي أن يكون عندك بيت مال! أردت أن تخدعني، قال: فرمى بها وقال: ردّ عليّ رأس مالي»[1]. وهذا يعني أن داود لم يرفض مبدأ تعاطي التجارة بحدّ ذاته، ولكنه يأبى كل الإباء أن يكون مستوى الربح فوق الحدّ المعقول، أو أن يكون خلف عملية التجارة نوع من التصدّق أو المساعدة غير المعلنة.

ورُوِيَ أنه لمّا احتاج داود وباع بعض ممتلكاته؛ جاءه أحد أصحابه، وقال له: «يا أبا سليمان لو أعطيتني هذه فأبضعتها لك لعلّنا نستفضل لك فيها شيئاً يُنتَفع به. فما زال به حتى دفعها إليه، ثم فكر فيها فلقيه بعد العشاء الآخرة، فقال: ارددها عليّ، فقال: ولِمَ ذاك يا أخي؟ قال: أخاف أن يدخل فيها شيء غير طيّب. فأخذها»[2].

وذكر سلمة بن سعيد أنه لمّا باع داود جارية له، قال له بعض إخوانه: «لو دفعت إليّ ثمنها فضاربت لك بها، فعشت من فضلها،

---

(1) حلية الأولياء، ٣٤٧/٧.

(2) صفة الصفوة، ٩١/٣ ـ ٩٢.

وكانت هي على حالها»، فلما ولّى دعاه، فقال: «هاتها عسى أن لا أفنيها حتى أموت». قال ابن سعيد: «فوالله ما أفناها حتى مات، وبقي منها شيئاً فاشترينا له كَفَناً»[1].

ولو تركنا ورع داود بالأمور التجارية، واستعرضنا سائر القضايا الحياتية وبالتالي تعامله مع الآخرين؛ نجده لا يَحيد عن مبدئه قيد أُنملة.

روى ابن الجوزي، أنه قال يوماً لمولاة له في الدار: «أشتهي لبناً، فخذي رغيفاً فائتي به البقّال فاشتري به لبناً ولا تُعلِمي البقّال لمَن هو؟» فذهبت، وفطن البقّال أنها تريد اللبن لداود فطيّبه له وجاءت به، فأكل منه داود ثم قال لها: «عَلِمَ البَقّال لمَن تريدين اللبن؟ فقالت: نعم. قال: ارفعيه. فما عاد فيه»[2]. فلعلّه ذهب خيره وطيبه وحلاله، وهذا من عيون الورع الذي يرتضيه ويتطلّع إليه الزاهدون.

ومن ورعه أنه كان لا يقبل من إخوانه هدية ولا من أصحابه عطية حتى ولو كان بأمسّ الحاجة إليها. قال الحسن بن زياد: «دخلنا عليه مع حمّاد بن الإمام أبي حنيفة، فقال: ما لي وللناس، ثم أخرج حمّاد أربع مائة درهم وقال: استعن بها على حوائجك فإنها من كسب الإمام لا من كسبي، فاستعظم وقال: لو كنت أقبل من أحد لقبلت منك»[3].

---

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٣.
(٢) صفة الصفوة، ٣/٨٩.
(٣) ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٧؛ قابل: تاريخ الإسلام، ص ١٨٢.

ومرة أخرى دخل عليه حمّاد وقال له: «لقد عرفت الإخاء بيني وبينك، اقترح عليّ شيئاً تسرّني به، قال: أشتهي تمراً برنياً»[1]، قال: فجاءه بكذا وكذا جعله فوضعه في زاوية بيته وما أكل منها تمرة، قال: حتى تسوّس!»[2].

إن هذه الشواهد، على ما فيها من مُغالاة أحياناً، تبيّن أن الرجل كان زاهداً ورعاً من الطراز الأول، بل كان مثلاً يُحتذى به، وقدوة صالحة لمَن جاء بعده وسار في طريق التعبّد والزهد والورع.

(١) البَرْنِيّ: ضَرْب من التَّمر. (مختار الصحاح، ص ٥٠).
(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٥٣.

الفصل الرابع

آخر نشاطات داود الطّائي ونهايته

أولاً ـ نشاطه الاجتماعي والسياسي:

١ ـ نشاطه الاجتماعي:

يتمثّل النشاط الاجتماعي عند داود الطّائي في ثلاثـة محاور، يبرز في المحور الأول جوده وكرمـه وتطلّعـه لمساعـدة الناس، وفي المحور الثاني يظهر مبـدأ تعامله مـع الآخرين ومـدى تأثيـره فيهم، وأخيراً نعرض لأهم أقواله ومواعظه ووصاياه.

أ ـ كرم داود الطّائي:

على الـرغم من حياة الفـاقـة والعَـوَز التي كـان يعيشهـا داود الطّائي؛ فقد ثبت لدينا أنـه كان جـواداً كريمـاً مِعطاءً، وذلـك على قدر استطاعته، فهو يأخذ بشُرعة «إعطاء القليل خير من الحرمـان». ولكن هذا القليل الذي كان يجود به كان يساوي، في أحيانٍ كثيرة، كلّ ما لديه من مدّخرات مالية، وفي أحيانٍ أخرى كان يجود بوجباته اليومية فيُرضي غيره ويبقى هو جائعاً طاوياً، وقد أشار ابن أبي عديّ إلى أنه كان يتصـدّق بغذائـه اليومي وهـو في طريقـه إلى عمله[1]،

---

(١) قـال ابن أبي عديّ أن داود كـان يعمل خـرّازاً. (تاريـخ بغـداد، ٨/٣٤٩ـ ٣٥٠). وبيّنا سابقاً أنه يعمل خزّازاً.

وظلّ هذا دأْبه مدة أربعين سنة(١).

وروى حمّاد بن أبي حنيفة حادثة حصلت بين داود وأُمّه تدلّ على سعة جوده وكرمه، فقال: «قالت له أُمّه يوماً: يا بني! لو اشتهيت شيئاً اتخذته لك؟ فقال: «أجيدي يا أُمّاه، فإني أُريد أن أدعو إخواناً لي»، فاتخذت وأجادت، فقعد على الباب لا يمرّ سائل إلّا أدخله، فقدّم إليهم كلّ ما عنده، وهو لا يأكل، فقالت له أمه: لو أكلت. قال: «فمَن أكله غيري؟» (٢).

وقيل: إن أُمّه كانت موسرة، فلما ماتت جدّ واجتهد «فقسم كل شيء تركته حتى لزق بالأرض»(٣) وهذا لا يصحّ لأنه كان يعتاش من تَرِكَة أُمّه كما بيّنا سابقاً. ولعلّ المؤلّف وَهِمَ وإنما أراد أن يشير إلى التَرِكَة التي ورثها من أحد أقربائه.

ولا شك؛ أن الطّائي كان كريماً إلى حدّ الإسراف، فقد جادَ ذات مرة بكامل ميراثه، فتصدّق به على الأيتام والمساكين وأهل الحاجة، مُحتَسِباً به وجه الله عزّ وجلّ وصِلَة الرَّحِم، قال عمرو بن طلحة: «ورث داود الطّائي من ابن عمّ له ـ لم يكن له وارِث غيره ـ نحواً من مائة ألف درهم، وعرضاً وغيره، قال: قد جعلت ما أصابني من ميراثي منه صدقة على أهل الحاجة والمسكنة. قال عمرو: فقُسِمَتْ والله في الأحياء عن آخرها درهماً. فقال له حمّاد بن أبي حنيفة: لو بقّيت بعضها لخَلَّة تكون؟ قال: «إني أحتسب بها صلة الرحم»(٤).

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٠؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠.
(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٥٣؛ صفة الصفوة، ٣/٩٠.
(٣) صفة الصفوة، ٣/٩٠.
(٤) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٢. والخَلَّة: الحاجة. (الصحاح، ص ١٨٧).

والملاحظ، أنه كان لداود في عطائه فلسفة خاصّة به، فهو يرى أن السخاء هو المروءة عينها التي تعتبر ركناً أساسياً من أركان العبادة الخالصة. لهذا عندما احتجم[1] دفع إلى الحَجَّام ديناراً[2]، فقيل له: هذا إسراف، فقال: «لا عبادة لمَن لا مروءة له»[3]. وقد علّق أصحابه على هذه الحادثة بقوله: «أما إنه لم يكن عنده شيء غير هذا ـ الدينار ـ كان فضل عنده من ثمن جارية كان اشتراها»[4]

وحدّث جُنَيد الحجّام فقال: أتيت داود الطّائي، فإذا قرحة قد خرجت على لسانه فَبَطَطْتُهَا[5]، وأخرجت قليل دواءٍ فوضعته في خرقة. فقلت: إذا كان الليل فضعه عليها. فقال: ارفع ذلك اللِّبد[6]، فرفعته فإذا دينار. فقال: خذه. قلت: يا أبا سليمان ليس هذا ثمن هذا، ثمن هذا دانق[7]. فوضعت الدواء في كُوّة[8]

---

(١) احتجم: طلب الحجامة أي المداواة والمعالجة بالمِحْجَم، والحَجَّام: من يتعاطى الحجامة بالمِحْجَم، وهو شيء كالكأس يُفرّغ من الهواء ويوضع على الجلد فيُحدِث فيه تهيّجاً ويجذب الدم. (مختار الصحاح، ص ١٢٤).

(٢) قال ابن خلّكان: «دفع للحجّام عشرة دراهم». (وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠).

(٣) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٠؛ الرسالة القشيرية، ص ١٢ ـ ١٣؛ صفة الصفوة، ٣/٩٠.

(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٥٤.

(٥) بطّ القَرْحَة: شقّها. (مختار الصحاح، ص ٥٦).

(٦) اللِّبْد: البساط من الصوف، واللِّبد: الكساء من الصوف. (المصدر نفسه، ص ٥٨٩).

(٧) الدانق: سدس الدرهم. (المصدر نفسه، ص ٢١٢).

(٨) الكُوّة: ثقب البيت. (المصدر نفسه، ص ٥٨٥).

وخرجت، ثم غدوت بعد يومين فإذا الدواء على حاله. قلت: يا أبا سليمان سبحان الله، لِمَ لم تُعالَج بهـذا الدواء؟ فقـال لي: إن أنت لم تأخذ الدينار لم أمسّه»[١].

وحدّث أبو نُعَيم عن كرم داود فقال: قال لي جُنَيد الحجّـام: «نزعت لداود الـطّائي ضرسـه، فأعـطاني درهماً، فقلت: إنمـا أجْر هذا دانقاً، فقال: خذه»[٢].

وفوق ذلك؛ كـان داود يؤثِر الأيتـام والمحتاجين على نفسـه؛ فهو يتصدّق بطعامه عليهم تقرّباً لله وإرضاءً لضميره.

رُوِيَ أن مولاة لداود كـانت تخدمـه فقالت لـه: «يا داود! لـو طبخت لك دسماً، قال: افعلي. فطبخت له شحماً ثم جـاءته بـه، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي به إليهم، فقالت له: فديتك، إنما تـأكل هـذا الخبز بـالماء؟ قـال: إني إذا أكلتـه كان في الحُشّ[٣]، وإذا أكله هؤلاء الأيتـام كان عنـد الله مذخوراً»[٤].

وعن تصـدّق داود على السؤال وكرمـه عليهم؛ حدّث قُبيصـة عن صاحب له قال: إن امرأة من أهل داود الطّائي صنعت ثـريدة[٥]

---

(١) صفة الصفوة، ٣/٩٠؛ قابل: حلية الأولياء، ٧/٣٥٤.
(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٥٥.
(٣) الحشّ: البستـان وهو أيضـاً المخْرَج؛ لأنهم كـانوا يقضـون حوائجهم في البساتين، والجمع حُشُوش والحَشيش. (مختار الصحاح، ص ١٣٧).
(٤) حليـة الأولياء، ٧/٣٥١؛ صفـة الصفوة، ٣/٨٩؛ قـابل: تـاريـخ بغـداد، ٨/٣٥٢؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦١.
(٥) ثرد الخبز: كَسَره. (مختار الصحاح، ص ٨٣).

بسمن، ثم بعثت بها إليه حين إفطاره مع جارية لها، قالت الجارية: «فأتيته بالقصعة[1] فوضعتها بين يديه، فسعى ليأكل منها، فجاء سائل فوقف على الباب فقام فدفعها إليه وجلس معه على الباب حتى أكلها، ثم دخل فغسل القصعة، ثم عمد إلى تمر كان بين يديه ـ قالت الجارية: ظننتُ أنه كان أعدّه لعشائه ـ فوضعه في القصعة ودفعها إليّ، وقال: أقرئيها السلام». قالت الجارية: دفع إلى السائل ما جئناه به، ودفع إلينا ما أراد أن يفطر عليه. وأضافت: وأظنّه ما بات إلاّ طاوياً»[2].

ولعل تلك التصرّفات أثّرت على صحة داود فجعلته هزيلاً لا يكاد يقدر أن يقوم بواجباته الدينية، لهذا قال قبيصة: «كنت أراه قد نَحِلَ جداً»[3]، فكان إذا أجهدته العبادة «احتبىٓ قاعداً»[4].

مهما يكن، فإن قصص جود داود وكرمه تغصّ بها الكتب، وهي ثابتة ولا مجال لإنكارها، وبفضلها تعزّزت مكانته بين مُعاصريه، لأنه أثبت لهم بالبرهان القاطع أنه زاهد بحقّ، وكلّ ما يرجوه هو راحة النفس ومُلاقاة ربّه بقلب خاشع ويد نظيفة.

ب ـ مبدأ تعامله مع الناس وتأثيره فيهم:

- مبدأ تعامله مع الناس:

وكما كان داود قُدوة في الزهد والعبادة والكرم، فقد كان معلّماً قديراً في تلقين الناس مبادىء التعامل مع الآخرين.

---

(١) القَصْعَة: الصَحْفة، جـ قِصَع وقِصَاع. (المصدر السابق، ص ٥٣٨).
(٢) حلية الأولياء، ٣٤٨/٧.
(٣) المكان نفسه.
(٤) وفيات الأعيان، ٢٦١/٢.

فاستعمال حوائج الغير تتطلّب الاستئذان، والغيبة ونقل الأسرار ليست من الأخلاق الحميدة، والتسامح والعفو من شِيَم الكرام. وقد نبّه داود إلى كل ذلك بأسلوب طلِي لكي لا يجرح شعور معارفه وأصحابه.

قال عبد العزيز بن محبوب: «دخلت على داود الطّائي وكوز موضوع له في صحن المسجد، قال: فشربت منه، فقال لي: يا ابن أخي لا تعودنّ تشرب حتى تستأمر»(١).

وقيل: «صرم(٢) رجل نخلة له فجاؤوا بشمراخ(٣) فقال: «إيش ذا؟ قالوا: رجل صرم نحلة له، قال: وقد جاء الرّطب؟»(٤).

وفي نقل الكلام والنميمة كان له موقف عتاب ولوم، عن ذلك حدّث ابن إدريس فقال: «قرأ عليّ داود الطّائي فلحن(٥) في حرف، فذكرته للقاسم بن معن، فنماه إليه، فلقيته، فقال: ما دعاك إلى أن حكيت ذلك اللحن؟»(٦).

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٥٩.
(٢) صرم الشيء: قطعه، وصَرَمَ النخل: جَدَّه. (مختار الصحاح، ص ٣٦٢).
(٣) الشمراخ والشمروخ: العِثْكالُ الذي عليه البُسْرُ. والعثكال: هو في النخل بمنزلة العنقود في الكرم، جـ عثاكيل. والبُسر: هو التمر إذا لُوِّن ولم ينضج، الواحدة بُسْرة، جـ بُسُورات. (لسان العرب «مادة شمرخ» و«مادة بسر»).
(٤) حلية الأولياء، ٨/٣٥٩.
(٥) اللحن: الخطأ في الإعراب. ولحن في قراءته من باب قطع إذا طرب بها. (مختار الصحاح، ص ٥٩٤).
(٦) حلية الأولياء، ٧/٣٥٩ ـ ٣٦٠.

ومقابل ذلك كان يشكر بصدق مَن يُسدي إليه النصيحة، ولا سيما إذا كانت مستقّاة من جوهر الدين والعقل السليم والسُّنّة الشريفة.

حدّث سعيد الطحّان عن رجل قال لداود: «يا أبا سليمان ألا ترى إلى نعِليك عن يمينك؟ لو جعلتها بين يديك أو عن يسارك؟ قال: بارك الله لك في فقهك»[1].

فهذه النماذج على قلّتها في المصادر؛ تعطي فكرة مقبولة عن كيفية التعامل بين البشر؛ حتى لا تحصل فيما بينهم عداوة وبغضاء، وعلى العكس من ذلك؛ فإن اعتماد أسلوب داود الطّائي في التعامل، يقرّب الناس بعضهم إلى بعض، ويُبعدهم عن المُشاحنات التي تقضي على اللُّحمَةِ في المجتمعات.

- تأثيره في الناس:

إن هذه السّيرة الحسنة، والسلوكية الحميدة التي اعتمدها داود في حياته؛ تركت أثراً واضحاً في نفوس مُعاصِريه؛ لا بل أصبحت سيرته مضرب الأمثال، ومَحطّ أنظار العلماء والفقهاء الزاهدين. لذا ظهر تأثيره في الناس إبّان حياته. واستمر إلى ما بعد وفاته.

ويظهر تأثير داود في الناس وأهميته في المجتمع الذي عايشه من خلال هذه الرواية.

حدّث أبو المهنّا الطائي قال: «خرج داود الطّائي يوماً إلى

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٦١.

السوق فرأى الرُّطَب، فاشتهته نفسه، فجاء إلى البائع فقال له: أعطني بدرهم إلى غدٍ. فقال له: اذهب إلى عملك، فرآه بعض من يعرفه، فأخرج له صرّة فيها مائة درهم، وقال له: اذهب فإن أخذ منك بدرهم رطباً فالمائة لك. فلحقه البائع، وقال له: ارجع! خُذ حاجتك. فقال: لا حاجة لي فيه. إنما جرّبت هذه النفس فلم أرها تساوي في هذه الدنيا درهماً، وهي تريد الجنّة غداً»(١).

كذلك كان الناس يحبّون أن يسكنوا بجوار داود ليسعدوا بلقائه، قال له شعيب بن طلحة: «أريد أشتري داراً بقربك ليكثر لقائي لك، فقال: إن مودّة يغيّرها قلّة اللقاء، لمودّة مدخولة»(٢).

وفوق ذلك؛ كان الناس يركبون الأهوال ويتحمّلون المشقّات من أجل الاجتماع به والتزوّد بوصاياه وعِظاته، فكان يبخل عليهم حيناً، ويحقّق آمالهم ويُغدق عليهم في أحيان أخرى، فيجود بكل ما في حوزته(٣).

والملاحظ؛ أن تأثير داود قد استمر إلى ما بعد وفاته؛ وربما لسنوات عديدة، فظلّت سيرته هي الأساس الذي تسير وفقه الأجيال المتعاقبة.

قال عبد الرحمن بن عمرو: «استشارني محمد بن عامر في ترك التجارة، فأشرت عليه أنا ومحمد بن النعمان أن يُبقي لنفسه، قال: فكتب إلى أخ له ببغداد ما أشرنا عليه، قال: فكتب إليه إن

(١) صفة الصفوة، ٣/٩١؛ طبقات الأولياء، ٢٠٢. قابل: حلية الأولياء، ٧/٣٥٧؛ ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٩ ـ ٥٤٠.
(٢) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٥.
(٣) انظر القسم المتعلّق بمواعظه ووصاياه. ص ١٠٠.

أخـويك لم ينصحـاك، إن داود الطّائي بـاع عقـدة لـه فقيـل لـه لـو جعلتها في التجارة يدخل عليـك منها شيء، قـال: فقال : لا! إمّـا أن تسبقني وإمـا أن أسبقها. قـال: فجعل ينفق منهـا ديناراً دينـاراً، قال: فمات وقد بقي منها ديناراً فكفّن فيه»[١].

وهكذا بقي داود، من خلال سلوكيته في الحياة، هو المرجـع الصالح للعلماء والمشرّعين، الـذين كانت تقلقهم تسـاؤلات الناس الورعين المتطلّعين إلى سلامة دينهم ودنياهم، فكانت مجـابهة داود للقضـايا الـدنيويـة هي العُرف السليم، وسُنّـة السلف الصالـح التي لا بدّ من الاستشهاد بها أثناء إصدار الفتاوى المحرجة.

جـ ـ أقواله ومواعظه ووصاياه:

لا شـك، أن أقوال الـرجال الأعـلام تعتبـر نـامـوسـاً حقيقيـاً للتعـامـل الاجتمـاعي، فهم وصلوا إلى تلك المبـادىء، من خـلال تجـاربهم مع الحيـاة ومُعانـاتهم الشخصية، ومكـابـدتهم للمجتمـع الذي عايشـوه. ومن خلال استعـراض جانب من أقـوال وحِكَم داود الطّائي تظهر لنا حقيقة الرجل الذي أفنى القسط الأكبر من حياته في العبادة والتأمّل وإرشاد الناس إلى الحقيقة التي غابت عنهم.

قال داود مُحَذِّراً الناس: «يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك وإنما بلغتـه بـانقضـاء مـدة أجلك، ثم سـوّقت بعملك كـأن منفعتـه إلى غيرك»[٢].

---

(١) حلية الأولياء، ٣٤٧/٧ ـ ٣٤٨.

(٢) صفة الصفوة، ٩٣/٣.

وقال أيضاً: «مسكين ابن آدم قطع الأحجار أهون عليه من ترك الأوزار»[١]. ثم قال: «لا تمهر الدنيا دينك، فمَن أمهرها دينه زفّت له الندم»[٢].

وفي اليأس والرجاء قال: «اليأس سبيل أعمالنا هذه، ولكن القلوب تحنّ إلى الرجاء»[٣].

وعن حُسن الظن قال: «ما يعوّل إلاّ على حُسْن الظن، فإنما التفريط فهو المستولي على الأبدان»[٤].

وفي الخير والشرّ قال: «كلّ نفس ترد إلى همّتها؛ فمهموم بخير ومهموم بشرّ»[٥]. وقال أيضاً: «كم من مسرور بأمر فيه هلاكه، وكم من كارهٍ أمراً فيه صلاحه»[٦].

وبما يخصّ الأكياس[٧] قال: «إن ما يبغيه الأكياس؛ مُلْكٌ لا زوال له، وعَيْشٌ لا موت فيه»[٨].

وإذا ما تركنا أقوال داود جانباً واستعرضنا نصائحه وعِظاته؛ نجده لا يفتقر إلى العلم والدراية والحكمة البليغة والموعظة الحسنة، التي كان لا يبخل بها على أصحابه وقاصِدِيه.

---

(١) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.
(٢) المصدر نفسه، ١/١٠٣.
(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٥٩؛ قابل: صفة الصفوة، ٣/٩٣.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٥٧.
(٥) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.
(٦) ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٩.
(٧) الكَيْس ضدّ الحُمق، والرجل كَيّس: أي الظريف والعاقل. لسان العرب (مادة كيس). وأحسبه يعني هنا بالأكياس الحكام والسلاطين.
(٨) الكواكب الدرّيّة، ١/١٠٤.

حدّث ابن السمّاك الزاهد فقال: «أوصاني أخي داود الطّائي بوصيّة: انظر لا يراك الله حيث نهاك، وأن لا يفقدك من حيث أمرك، واستَحْيه في قُربه منك وقدرته عليك»[١].

وقال عبد الله بن إدريس: «قلت لداود الطّائي: أوصني. قال: أقلل من معرفة الناس، قلت: زِدْني. قال: ارْضَ باليسير من الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا مع فساد الدين. قلت: زدني. قال: اجعل الدنيا كيومٍ صُمتَه ثم أفطرت على الموت»[٢].

وحدّث رجل من أهل داود قال: «قلت له يوماً: يا أبا سليمان قد عرفت الرَّحم التي بيننا فأوصِني، قال: فدمعت عيناه. ثم قال: يا أخي! إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلةً مرحلةً، حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدّم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزوّد لسفرك واقضِ ما أنت قاضٍ من أمرك، فكأنك بالأمر قد بغتك، إني لأقول لك هذا وما أعلم أحداً أشدّ تضييعاً منّي لذلك، ثم قام وتركني»[٣].

وقال أبو الربيع الأعرج لداود: «أوصِني، قال: ... صاحب أهل التقوى إن صحبت، فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤونة عليك، وأكثرهم لك معونة»[٤].

---

(١) صفة الصفوة، ٣/٩٣؛ ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٨.
(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٤٣؛ صفة الصفوة، ٣/٨٨؛ قابل: تاريخ الإسلام، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.
(٣) صفة الصفوة، ٣/٩١.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٤٦؛ تاريخ بغداد، ٨/٣٥٠ ـ ٣٥١؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠.

قال الحارث بن إدريس[1]: وفي رواية أخرى[2]، قال بكر بن محمد: «قلت لداود الطّائي: أوصني، قال: عسكر الموتى ينتظرونك».

ومن مواعظه المؤثرة ما قاله لصديقه عقبة بن موسى، فقال له ذات يوم: «يا عقبة كيف يتسلّي من حزن مَن تتجدّد عليه المصائب في كل وقت؟ فخرّ عقبة مغشيّاً عليه»[3].

وقال يوماً لسفيان الثّوري: «إذا كنت تشرب الماء المبرّد، وتأكل اللذيذ المطيّب، وتمشي في الظلّ الظليل، فمتى تحبّ الموت والقدوم على الله؟ فبكى سفيان»[4].

إلى جانب هذه الوصايا والمواعظ الفردية التي كان يجود بها داود على أصحابه وروّاده، فقد كانت له عِظات جماعية؛ بحيث كان يغتنم المناسبات الاجتماعية التي يتجمهر فيها الناس فيقف فيهم واعظاً ومرشداً، في وقت غابت فيه الأنبياء والرُّسل، وقلّ فيه الأولياء والصالحون.

حدّث صدقة الزاهد قال: «خرجنا مع داود الطّائي في جنازة بالكوفة، قال: فقعد داود ناحية، وهي تُدفن فجاء الناس فقعدوا قريباً منه، فقال: مَن خاف الوعيد قَصُر عليه البعيد، ومَن طال أمله ضعف عمله، وكلّ ما هو آتٍ قريب، واعلم ياأخي أن كل شيء

(١) صفة الصفوة، ٩٣/٣؛ ذيل الجواهر المضيّة، ٥٣٨/٢.
(٢) حلية الأولياء، ٣٥٦/٧؛ الكواكب الدرّيّة، ١٠٣/١.
(٣) حلية الأولياء، ٣٥٦/٧.
(٤) المصدر نفسه، ٣٤٦/٧؛ الكواكب الدرّيّة، ١٠٤/١.

يشغلك عن ربـك فهو عليـك مشؤوم، واعلم أن أهـل القبـور إنمـا يفرحون بما يقدّمون ويندمون على ما يُخلفون، وأهل الدنيا يقتتلون ويتنافسون فيما عليه أهل القبَور يندمون»[1].

بالنتيجة؛ فـإن تلك العُزلـة التي فرضهـا داود على نفسه؛ لم تُنسِه الدور الاجتماعي الذي تفـرضه عليـه طبيعته الإنسـانية. لهـذا أعطى كلّ ما عنده من مشاعر تجاه الآخرين، تمثّل ذلك بكرم وجود رائعين، وبـالتالي أعـطى أمثلة صادقـة عن كيفية التعـاطي مع أبنـاء المجتمع، وخَلُصَ إلى أقوال سديدة وحِكَم بليغـة وعِظَات ووصـايا كانت رائدة لعامّة الناس وخاصّتهم.

٢ ـ نشاطه السياسي:

أ ـ علاقته بالخلفاء العباسيين:

الواضح من خلال الروايات المتواتـرة؛ أن داود الطّائي كـان في عـداد الفقهاء والمحـدّثين الزاهـدين الذين آلـوا على أنفسهم أن يبقـوا مُقاطِعين لأصحاب السلطان من خلفاء وأمراء وحكّام، وقد ظلّ داود وفيّـاً لهذا المبـدأ طوال حيـاته، فـرفض الاجتماع بهم أو الـدخـول عليهم، كما رفض أن يتولّى مناصبهم وأن يأخذ هِباتهم وهـداياهم. فكـان في موقفـه هذا تصلّب وبُعـد عن ممارسـة واجبـاتـه الـدينيـة والاجتمـاعية ولا سيمـا أن القرآن الكـريم «دستور المسلمين» ينصّ صراحةً على مبدأ القيام بواجب الأمر والنهي[2].

---

(١) صفة الصفوة، ٣/٨٩؛ قابل: ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٨.

(٢) عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ انظر: علي بن محمد المـاوردي، الأحكام السلطانية والـولايات الـدينية، ص ٢٤٣ ومـا بعدهـا، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨/١٩٧٨.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ ولتكُنْ مِنكم أُمّة يدعُونَ إلى الخَير ويأمُرُونَ بالمعروف ويَنهون عنِ المُنكر أولئك هم المفلحون ﴾[١]. وقال أيضاً: ﴿ كنتم خير أمة أُخرِجَت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[٢]. وقال في سورة الحج: ﴿ الذين إن مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾[٣]، فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين.

وأما عن موقف الرسول الكريم (ﷺ) من هذه القضية، فيظهر بجلاء من خلال قوله: «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة»، قيل: لمَن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامّتهم»[٤]، وقال أيضاً: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[٥]، فالأمر والنهي بشُرعة الرسول (ﷺ) هو أفضل أنواع الجهاد.

وقد لخّص الإمام علي بن أبي طالب موقف الأئمة والخلفاء الراشدين بقوله: «أول ما تغلبون عليه من الجهاد؛ الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فإذا لم يعرف القلب

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٤.
(٢) نفسها، آية: ١١٠.
(٣) نفسها، آية: ٤٠.
(٤) أبو بكر محمد الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١٣٥، الإسكندرية، المطبعة الوطنية، ١٢٨٩ هـ.
(٥) أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ٢/٣٧١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/١٩٨٦.

المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفل»(١).

وعلى الرغم من هذه الأدلّة والمواقف المشجّعة على تبنّي قضية الأمر والنهي، والتي لا بدّ أن يكون داود الطّائي قد اطّلع عليها، فإننا نجده يتنصّل من القيام بهذا الواجب الديني والاجتماعي، ويتذرّع بشتّى الحِجَج والأعذار من أجل التهرّب من تلك المهمة، عن ذلك تحدّث سَنْدُوَيه الفتال فقال: قيل لداود الطّائي: «أرأيت رجلاً دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السّوط، قال: إنه يقوى، قال: أخاف عليه السيف، قال: إنه يقوى، قال: أخاف عليه الدّاء الدّفين من العُجب»(٢).

ولعلّ هذا الموقف الذي عُرِفَ به داود؛ كان موضوع أحاديث وُجَهاء القوم الذين يتردّدون على الحكّام والأمراء، فكانوا يثنون عليه ويذكرونه بكل جميل، وبالمقابل؛ نجد داود لا يغترّ بذلك بل يزداد تواضعاً ويرى نفسه مقصّراً في واجباته ولا يستحقّ ذلك الإثراء والتبجيل.

قال قبيصة بن عقبة: «بلغ داود أنه ذُكِرَ عند بعض الأمراء فأُثنِي عليه، فقال: إنما نبلغ ستره بين خلقه، ولو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذلّ لنا لسان بذكر خير أبداً»(٣).

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٣٣٩.
(٢) حلية الأولياء، ٧/ ٣٥٨؛ صفة الصفوة، ٣/ ٩٣ ـ ٩٤؛ تاريخ الإسلام، ١٨١؛ الكواكب الدرّيّة، ١/ ١٠٤.
(٣) حلية الأولياء، ٧/ ٣٥٩؛ الكواكب الدرّيّة، ١/ ١٠٥.

والثابت بملاحظة المؤرّخين؛ أن داود الطّائي قد بقي بعيداً عن أصحاب الشأن، وفي حين تفرّد أحدهم[1] بذكر إشارة عابرة مفادها أنه «وفد على ـ الخليفة ـ المهدي ببغداد ثم عاد إلى الكوفة». فإن الآخرين قد أجمعوا على أنه كان يتضايق ويتذمّر من أن يجتمع وإيّاه في مِصْرٍ واحدٍ.

قال أبو نُعَيم الفضل بن دكين: «كنت ببغداد عند داود الطّائي وبها المهدي عشرين ليلة، فسمع ـ داود ـ ضوضاء، فقال: ما هذا؟ قالوا أمير المؤمنين يا أبا سليمان! قال: وهو هاهنا؟!»[2]، وكأنه كره المقام في بلدٍ فيه الخليفة.

وكما كره داود مجاورة الخليفة المهدي، كذلك كره أخذ عطاء وهِبات الخليفة هارون الرشيد، بل رفض ذلك بإصرار وعناد بالغين.

ذكر العجلي[3] أنه قَدِمَ هارون الكوفة «فكتب قوماً من القُرّاء، فأمر لهم بألفين، وكان داود ممّن كُتِبَ فيهم، فدُعِيَ باسمه: أين داود الطّائي؟ قالوا: داود لا يحتمل!»[4]، أرسلوها إليه، قال ابن السماك، وحمّاد بن أبي حنيفة: نحن نَذْهَبُ بها إليه، قال ابن السماك لحمّاد في الطريق: إذا نحن دَخَلْنا عليه فانْثُرها بين يديه فإنّ للعين حقّها[5]، رجل ليس عنده شيء فأُمِرَ له بألفي درهم

(١) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ١٠/١٤٥.
(٢) تاريخ بغداد، ٩/٣٤٧.
(٣) تاريخ الثقات، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٤) جاء في تاريخ بغداد: «قالوا داود يجيكم»، ٨/٣٥٢.
(٥) «فإن للعين حظّها». المصدر نفسه، المكان نفسه؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦١.

يردّها! فلما دخلوا عليه نثروها بين يديه، قال: سوءة إنما يُفعَل هذا بالصبيان، فأبى أن يقبلها».

وأضاف صاحب حلية الأولياء[1] أنهم قالوا له: «يا أبا سليمان هذا شيء جاءك الله به لم تطلبه ولم تَشْرَه له نفسك، قال: إنه لمن أمثل ما يأخذون، قالوا: فما يمنعك عنه؟ قال: لعلّ تركه يكون أنجى».

ب ـ علاقته بالأمراء العباسيين:

الملاحظ؛ أن داود الطّائي لم يغيّر سياسته إزاء الأمراء العباسيين حينما بدأوا يتقرّبون إليه ويعرضون خدماتهم عليه، بل استعمل الأسلوب نفسه الذي يتعامل به مع خلفائهم، فأعلن عن مقاطعته لهم ورفض تولّي مناصبهم، وتمنّع عن أخذه هِباتهم بكل ما فيها من عروض وإغراءات.

ولقد أوضح هذا الجانب محمد بن حسّان مستشهِداً بحديث عمّه الذي قال: «قَدِمَ محمد بن قحطبة[2] الكوفة فقال: أحتاج إلى مؤدّب يؤدّب أولادي، حافظ لكتاب الله تعالى، عالِم بسُنّة رسول الله (ﷺ) وبالآثار والفقه والنحو والشعر وأيام الناس؛ فقيل له: ما يجمع هذه الأشياء إلّا داود الطّائي..، فأرسل إليه يعرض ذلك عليه ويُسني له الأرزاق والفائدة فأبى داود ذلك، فأرسل إليه بدرة[3]

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني، ٣٥٣/٧.

(٢) هو ابن القائد قحطبة بن شبيب الطائي أحد نقباء بني العباس، (الكامل في التاريخ، ٥٣/٥، ٢٥٤؛ شذرات الذهب، ١٩٠/١).

(٣) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم. لسان العرب (مادة بدر).

عشرة آلاف درهم، وقال له: استَعِن بها على دهرك، فردّها فوجّه إليه بدرتين مع غلامين له مملوكين وقال لهما: إن قبل البدرتين فأنتما حُرّان، فمضيا بهما إليه فأبى أن يقبلها، فقالا له: إن في قبولها عِتْقَ رِقابنا من الرقّ، فقال لهما: إني أخاف أن يكون في قبولها وَهق رقبتي في النار، ردّهما إليه وقولا له: إن ردّهما على مَن أخذهما منه أولى من أن يعطيني أنا»[1].

من جهة أخرى، ذكر الذهبي[2]، «أن ابن قَحطَبة الأمير[3] أحبّ أن يَصِلَ داود الطائي، فكلّم إسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة أن يحمل إليه ألف دينار، فقال: لا يقبلها، قال: تلطّف، فجاء داود فكلّمه وقال: قد علمت ما بينك وبين الحسن بن قَحْطبة من القرابة[4]، وقد أحبّ أن يَصِلَك، فغضب وقال: لو غيرك فعل هذا ما كلَّمتُه أبداً، قل له يردّها على أهلها، فهُم أحقُّ بها».

وهكذا؛ ظلّ داود وفيّاً لمبادئه، مخلصاً لعقيدته حتى آخر رمق في حياته، لهذا قالوا فيه: «مات داود ولم يأخذ من السلطان عطية ولا قبل من الإخوان هدية»[5].

---

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٤٩؛ قابل: وفيات الأعيان، ٢/٢٦٠.
(٢) تاريخ الإسلام، ص ١٨١.
(٣) هو الأمير الحسن بن شبيب الطّائي، كان من كبار قوّاد المنصور العباسي، توفي سنة ١٨١/٧٩٧. (شذرات الذهب، ١/٢٩٥).
(٤) أشار الخطيب البغدادي إلى تلك القرابة. (تاريخ بغداد، ٨/٣٤٩).
(٥) عيون الأخبار، ٢/٣١٥؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٢.

ثانياً ـ نهاية داود، ومكانته بشهادة مُعاصِرِيه:

١ ـ وفاته ورثاؤه:

أ ـ مع رحلة الوفاة:

اختلف المؤرّخونْ في تحديد سنة وفاة داود الطّائي، فمنهم مَن جعلها في حدود عام ١٦٠ هـ/٧٧٧[١]، وبعضهم قال: في سنة ١٦٢/٧٧٩[٢]، والبعض الآخر، وهم المُكثِرون، فجعلوها في سنة ١٦٥/٧٨٢[٣].

والثابت لدينا؛ أنه توفّي في سنة ١٦٢/٧٧٩، أي في السنة نفسها التي توفي فيها إبراهيم بن أدهم الزاهد السائح[٤]. وذلك استناداً إلى المصادر الأصيلة المتخصّصة بالوفيات[٥].

---

(١) التاريخ الكبير، ١/٢٤٠؛ مشاهير علماء الأمصار، ص ١٦٨؛ الكامل في التاريخ، ٦/٥٠. أما الخطيب البغدادي فلم يحسم هذا الأمر وإنما جعله سنة ١٦٠/٧٧٧ أو ١٦٥/٧٨٢. (تاريخ بغداد، ٨/٣٥٤). وكذلك ابن خلّكان، ٢/٢٦١؛ والخزرجي، ص ٩٤.

(٢) الذهبي في: تاريخ الإسلام، ص ١٨٤، وأعلام النبلاء، ٧/٤٢٥، والعِبَر، ١/٢٣٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٣/٤٩٥؛ شذرات الذهب، ١/٢٥٦؛ يوسف بن إسماعيل النبهاني جامع كرامات الأولياء، ٢/٦، بيروت: دار صادر، د.ت..

(٣) طبقات ابن سعد، ٦/٣٦٧؛ صفة الصفوة، ص ٩٦؛ ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٩؛ ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ٧/٢١٣.

(٤) إبراهيم بن أدهم البلخي، وثّقه النسائي وغيره وكان أحد السادات، له كرامات واجتهاد عند الخاصّ والعامّ، توفي سنة ١٦٢/٧٧٩. (شذرات الذهب، ١/٢٥٥).

(٥) الوافي بالوفيات، ١٣/٤٩٥؛ شذرات الذهب، ١/٢٥٦.

ويتـوافق هذا الـرأي مع مـا ذكـره أحمـد بن أبي الـطيب[1].
فروى عن أبي داود[2] وهو شاهد عيان قولـه: «مات إسـرائيل وداود في أيام وأنا بالكوفة»[3]، وبالعـودة إلى تاريـخ خليفة بن خيـاط[4]، وطبقـات ابن سعـد[5]، وجـدت أن إسـرائيـل بن يـونس بن أبي إسحاق[6] توفي بالكوفة سنة ١٦٢/٧٧٩.

وهكذا؛ بعد صراع مع الحياة دام قرابـة الستّة عقـود بدأ داود الـطّائي يحضّر نفسـه للقاء ربّـه، ويبدو أنـه لم يكن به علّة مُـزمِنَـة بـدليل مـا أدلى به حفص بن عمـر الجُعفي فقال: «اشتكى داود بن الطّائي أياماً، وكان سبب علّتـه أنه مـرّ بآيـة فيها ذكـر النار فكـرّرها مراراً في ليلته فأصبح مريضاً..»[7].

ولعـلّ الساعـات الأخيرة من عمـر داود كانت شـديدة الـوطأة عليـه، فقـال أبـو داود الـطيـالسي: «شهـدت جنـازة داود الـطّائي، وحضرتُه عند الموت، فما رأيت أشدّ نزْعاً منـه، أتيناه مـن العَشِـيّ

(١) المعـروف بـالمـروزي، روى عن ابن المبـارك وهشيم وعنـه البخـاري والترمذي، كان حافظاً صدوقاً. (تهذيب ابن حجر، ١/٤٤ ـ ٤٥).
(٢) هو سليمان بن داود: أبو داود الطيالسي، الحافظ الكبير، صاحب المسند، توفي سنة ٢٠٤/٨١٩ مترجم في: (تاريخ بغداد، ٩/٢٤؛ تذكرة الحفّاظ، ١/٢٥١؛ تهذيب ابن حجر، ٤/١٧٦).
(٣) التاريخ الكبير، ٣/٢٤٠؛ تاريخ بغداد، ٨/٣٥٤.
(٤) ٢/٤٦٨.
(٥) ٦/٣٧٤؛ السيوطي، طبقات الحفّاظ، ص ٩٧.
(٦) هـو أبو يـوسف الكوفي، متّفق على تـوثيقه، روى عن الأعمش وسمـاك بن حرب وغيرهما وعنه أبو داود الطيالسي وأبو نُعيم ووكيـع بن الجراح متـرجم في: (تذكرة الحفّاظ، ١/٢١٤، وتهذيب ابن حجر، ١/٢٦١).
(٧) حلية الأولياء، ٧/٣٤٠؛ صفة الصفوة، ٣/٩٤؛ طبقات الأولياء، ١٨٢.

ونحن نسمع نزعه قبل أن ندخل، ثم غَدَوْنا عليه، وهو بعدُ في النّزع[1] وكنّا نسمع خِواره كأنه خِوار ثور[2]، فلم نبرح حتى مات»[3].

ولمّا هدأ؛ فتحوا باب داره عليه، فوجدوه قد مات ورأسه على لَبِنَة[4]، فدخل ناس من إخوانه وجيرانه، ومعهم ابن السماك الزاهد، فلما نظر إلى رأسه قال: «يا داود! فضحت القرّاء»[5].

بعد ذلك؛ أخذ الناس يتوافدون إلى الكوفة لوداع سيّد الزهّاد وليتباركوا منه قبل مُواراته، قال شاهد عيان: «رأيت الناس هاهنا باتوا ثلاث ليالٍ مخافة أن تفوتهم جنازة داود»[6]، ثم صوّر حالة الحزن التي عمّت المُشاركين في جنازته فقال: «ورأيت الناس كلهم يبكون، ما شبَّهتُه إلّا بيوم الخروج»[7].

ولمّا جاء موعد دفنه؛ أصبح الزّحام على أشدّه، فتحدّث الحسن بن بِشْر عن تلك اللحظات الأخيرة فقال: «حضرت جنازة داود، وكان يُنعى ساعة بعد ساعة ثم نكذب، فحمل على سريرين أو ثلاثة تكسّر من زحام الناس عليه، فيُغَيَّر السرير، وصُلِّي عليه كذا

---

(١) تاريخ الإسلام، ص ١٨٣.
(٢) حلية الأولياء، ٣٤١/٧.
(٣) تاريخ الإسلام، ص ١٨٣؛ صفة الصفوة، ٩٤/٣.
(٤) صفة الصفوة، ٩٤/٣؛ طبقات الأولياء، ٢٠٢ ـ ٢٠٣، واللَّبِنَة: التي يُبْنى بها، وهي المضروب من الطين. (مختار الصحاح، ص ٥٩١).
(٥) حلية الأولياء، ٣٤٠/٧؛ تاريخ الإسلام، ص ١٨٣.
(٦) تاريخ الإسلام، ص ١٨٣
(٧) حلية الأولياء، ٣٤١/٧؛ أعلام النبلاء، ٤٢٥/٧.

كذا مرّة»[1]. وأضاف: «ولقد رأيته يوضع على القبر فيجيء قوم فيحملونه فيذهبون به ثم يُعيدونه إلى موضع القبر»[2].

وفي يقيني؛ أن هؤلاء القوم كانوا يبغون، من المشاركة في دفن داود، تسجيل موقف تاريخي، يرتكز على أُسُس دينية واجتماعية. فأرادوا أول الأمر أن يتباركوا بالرجل الصالح الذي تناقلت الناس أخباره، كما أرادوا أن يُفاخروا الأقوام الأخرى بأنهم شاركوا في جنازة أحد أعلام الأمة، وأخيراً تأمّلوا من تاريخ أعلام الفقهاء والمحدّثين أن يقدّر لهم هذا الموقف ويذكرهم بكل جميل.

ومهما تكن الدوافع، فإن شاهد عيان آخر تحدّث عن الزّحام الذي شهدته جنازة داود فقال: «فلما حملوه إلى قبره شيّعه خلق كثير حتى خرج ذاوات الخُدُور»[3]، وقال يونس بن عروة: «زحموني في جنازة داود الطّائي حتى قطعوا نعلي فذهبت، وسلّوا ردائي عن منكبي فذهب»[4]، وقال أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين: «حضرت جنازته فما رأيتها من كثرة الخلق»[5].

والواقع؛ أن تلك المناسبة تركت أثراً في نفوس أصحاب التصانيف، فقال الصفدي: «كانت جنازة داود عظيمة مشهورة»[6].

---

(١) تاريخ الإسلام، ص ١٨٣.
(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٤١؛ قابل: أعلام النبلاء، ٧/٤٢٥.
(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٤٠؛ تاريخ الإسلام، ص ١٨٣.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٤١.
(٥) طبقات ابن سعد، ٦/٣٦٧.
(٦) الوافي بالوفيات، ١٣/٤٩٥.

ب ـ رثـــاؤه:

لعـلّ أبرز مـراسم دفن داود ذلك الـوداع المؤثّر الـذي جـرى على لسان ابن السماك الزاهد وأبي بكر النهشلي(١).

حَدّث الثقات؛ أنـه لمّا دفن داود قـام ابن السماك على قبـره يرثيه فألقى خطبة مشهورة قال فيها:

«أيّها الناس! إن أهـل الزّهـد في الدنيـا تعجّلوا الراحـة على أبدانهم، مع يسيـر الحساب غـداً عليهم، وإن أهلَ الـرغبة تعجّلوا التعب على أبدانهم مع ثقـل الحساب عليهم غـداً، والزهـادة راحة لصـاحبها في الـدنيا والآخـرة، والرغبـة تعب لصـاحبهـا في الـدنيـا والآخرة. . . »(٢).

ثم قـال: «يا داود مـا أعجب شأنـك بين أهل زمـانك! أهنتَ نفسَك وإنما تـريد إكـرامها، وأتعبتهـا وإنما تـريد راحتهـا، أخشنت المـطعَم وإنما تـريد طيبـه، وأخشنت المَلبَس وإنما تـريد لَيِّنَـه، ثم أمَتَّ نفسَـك قبل أن تمـوت، وقبرتهـا قبل أن تُقبَـر، وعذّبتهـا ولمّـا تُعَذَّب، وأغبتها عن الدنيا لكيلا تُذكَر. . . فما أظنُّك إلاّ وقد ظَفِرتَ بما طالبت: كـان سيماك في سـرِّك ولم يكن سيماك في عـلانيتك، تفقّهت في دينك وتركت النـاس يُفْتُون، وسمعت الحـديث وتركتهم يُحدِّثون، وخَرِسْتَ عن القول وتركتهم ينطقون، لا تَحسُد الأخيـارَ، ولا تُعيبُ الأشـرارَ، ولا تقبل من السلطان عـطيّة، ولا من الإخـوان

(١) هو أبو بكـر بن قطّان النهشلي الكـوفي، حدّث عنـه ابن المبارك ووكيـع بن الجـراح، وأبــو نعيم، وثّقــه العجلي وأبــو داود وابن معين، ومنهـم مَن يضعفــه، (ثقات العجلي، ص ٤٩٣؛ تهذيب ابن حجر، ١٢/ ٤٤).

(٢) تاريخ بغداد، ٨/ ٣٥٤؛ وفيات الأعيان، ٢/ ٢٦١.

هديّة؛ آنسُ ما تكون إذا كنت بالله خالياً، وأوحش ما تكون آنسُ ما يكون الناس؛ فمَن سمع بمثلك وصبر صبرك وعزم عزمك! لا أحسبك إلاّ وقد أتعبت العابدين بعدك، سجنت نفسك في بيتك فلا مُحَدِّث لك ولا جليس معك، ولا فراش تحتك ولا سِترَ على بابك، ولا قُلَّة يُبَرَّد فيها ماؤك ولا صحفة يكون فيها غذاؤك وعشاؤك، مطهرتك قلّتك وقَصْعَتُك تَوْرُك[1]، وكلّ أمرك يا داود عَجَب. أما كنت تشتهي من الماء بارده، ولا من الطعام طيّبه، ولا من اللباس ليّنه؟! بلى! ولكنك زهدت فيه لما بين يديك؛ فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت في جنب ما أمَّلت، فلما متّ شرك ربُّك بموتك، وألبسك رداء عملك، وأكثر تبعَك، فلو رأيت مَن حضرك عرفت أن ربَّك قد أكرمك وشرَّفك، فلْتتكلّم اليوم عشيرتُك بكلِّ ألسنتها، فقد أوضح ربُّك فضلها بك، ووالله لم يَدْعُ عبداً إلى خيرٍ بعمله إلاّ حُسْنُ هذا النَّشر من كثرة هذا التَّبَع، لقد كان حقيقاً بالاجتهاد والجَهد لمَن لا يُضيع مُطيعاً ولا ينسى صنيعاً شاكراً ومُثيباً»[2].

وقيل: إن ابن السماك أنهى خطبته بحماس شعبي ليس له نظير، فأخذ يعدّد فضائل داود والناس من بعده تزكّي قوله. فجعل يقول: رحمك الله يا داود! كنت تسهر ليلك والناس نائمون، وكنت تربح إذ الناس يخسرون، فقال الناس جميعاً صدقت؛ وكنت تسلم

---

(١) التور: إناء صغير يتوضّأ منه ويُشرَب فيه. لسان العرب (مادة تور).

(٢) عيون الأخبار، ٢/٣١٥ ـ ٣١٦؛ قابل: ابن عبد ربّه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين والزين والأبياري، ٣/٢٣٨ ـ ٢٣٩، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٧٢/١٩٥٢؛ وصفة الصفوة، ٣/٩٤ ـ ٩٦؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦٢.

إذا الناس يخوضون، فقال الناس جميعاً صدقت، حتى عدّد فضائله كلها[1].

فلما فرغ ابن السماك؛ قام أبو بكر النهشلي فحمد الله ثم قال: «يا ربّ إن الناس قد قالوا ما عندهم ومبلغ ما علموا، اللّهمّ اغفر له برحمتك ولا تَكِله إلى عمله»[2]، ثم فرغ من دفنه وانصرف الناس.

وخير ما نُنهي به هذا الجانب أن نتناول تَرِكَة داود الطّائي والتي خَلَتْ كغيرها من تَرِكات الفقهاء الزاهدين من الأثر النفيس وأعني به كتبه ومؤلّفاته التي تهمّنا قبل كل شيء، وأما البقيّة الباقية من مخلّفاته، فقد أفادنا عنها عبد الله بن صالح العجلي فقال: «دخلت على داود الطّائي في مرضه الذي مات فيه، ليس في بيته إلّا دَنٌّ مقيّر[3]، يكون فيه خبز يابس ومطهرة ولَبِنَة كبيرة على التراب يجعلها وِسادة وهي مخدّته، ليس في بيته بوري[4]، ولا قليل ولا كثير»[5].

٢ ـ رُؤى الناس لداود:

لقد تأثّر الناس بسيرة داود الطّائي، بما فيها من عبادة وتقوى

(١) وفيات الأعيان، ٢/٢٦٢؛ قابل: تاريخ بغداد ٨/٣٥٥.
(٢) صفة الصفوة، ٣/٩٦؛ وفيات الأعيان، ٢/٢٦١.
(٣) الدَّنُّ: واحد الدِّنّان وهي الحباب، ومقير: أي مطلي بالقار، وهو طِلاء أسود. مختار الصحاح، ص ٥٥٩.
(٤) بوري وباري وبارية: هي الحصير من القصب. (المصدر نفسه، ص ٦٩).
(٥) صفة الصفوة، ٣/٩٢؛ قابل: تهذيب ابن حجر، ٣/٢٠٣.

وزهد وورع، فعمرت المجالس بذكر نوادره، كما تناقلت الركبان جوانب من أخباره، حتى شغل أمره الكثيرين من الخاصّة والعامّة، واستحوذ على تفكيرهم ومشاعرهم، ولمّا افتقدوه كانت الرؤى الصالحة هي خير بديل له.

وقد قال رسول الله (ﷺ): الرؤيا الصالحة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة»[1] وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلّا بانقشاع الغشاوة عن القلب. فلذلك لا يوثق إلّا برؤيا الرجل الصالح الصادق، ومَن كثر كذبه لم تصدق رؤياه، ومَن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام[2].

فَيُروى أن أحد الصالحين رأى داود الطّائي في المنام يعدو في صحراء الحيرة فقيل له: «ما هذا؟ قال: الساعة خرجتُ من السجن»[3]، فاستيقظ الرجل، وإذا الصياح: «قد مات داود»[4].

وتحدّث حفص بن عمر في هذا الأمر فقال: «كان داود الطّائي ومحمد بن النضر الحارثي[5] من العمّال لله بالطاعة، المكدودين في العبادة، فلما مات ـ داود ـ رأى رجل من عباد أهل الكوفة يقال له محمد بن ميمون ـ وكان يذكر من فضله ـ فرأى مُنادياً

---

(١) أخرجه البخاري في «كتاب الرؤيا»، باب ٢ و٤ و١٠ و٢٦؛ ومسلم في كتاب «الرؤيا»، حديث ٦ ـ ٩.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤/٥٣٦.

(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٥٥.

(٤) طبقات الأولياء، ٢٠٣؛ قابل: الرسالة القشيرية، ص١٣.

(٥) محمد بن النضر أبو عبد الرحمن الحارثي العابد الكوفي روى عن الأوزاعي وعنه عبد الله بن المبارك وأبو نصر التمّار وعبد الرحمن بن مهدي. (الجرح والتعديل، ٨/١١٠؛ صفة الصفوة، ٣/١٠٥).

ينادي: ألا إن داود الطّائي ومحمد بن النضر الحارثي طلبا أمراً فأدركاه»[1].

وروى جعفر بن نُفيل الرهبي رؤياه فقال: «رأيت داود الطّائي بعد موته فقلت له: كيف رأيت خير الآخرة؟ قال: رأيت خيرها كثيراً، قلت: فماذا صرت إليه؟ قال: صرت إلى خير الحمد لله، قال: فقلت له: هل لك من علم بسفيان بن سعيد ـ الثّوري ـ؟ فقال: كان يحبّ الخير وأهله فرقاه الخير إلى درجة أهل الخير»[2].

وحدّث عبد العزيز بن محمد قال: «رأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول: مَن يحضر مَن يحضر؟ فأتيته فقال لي: ما تريد؟ قلت: سمعتك تقول مَن يحضر مَن يحضر فأتيتك أسألك عن معنى كلامك، فقال لي: أما ترى القائم الذي يخطب الناس ويخبرهم عن أعلى مراتب الأولياء فأدرك فلعلّك تلحقه وتسمع كلامه قبل انصرافه؟

قال: فأتيته فإذا الناس حوله وهو يقول:

ما نال عبد من الرحمن منزلة
أعلى من الشوق إن الشوق محمود

قال: ثم سلّم ونزل، فقلت لرجل إلى جانبي: مَن هذا؟ قال: أما تعرفه؟ قلت: لا! قال: هذا داود الطّائي، فعجبت في منامي منه، فقال: أتعجب مما رأيت؟ والله للذي لداود عند الله أعظم من هذا وأكثر»[3].

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٥٢.

(٢) وفيات الأعيان، ٢/٢٦٢ ـ ٢٦٣؛ قابل: تاريخ بغداد، ٨/٣٥٥.

(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٦٠؛ جامع كرامات الأولياء، ٢/٦.

إلى جانب ذلك؛ فقد كان لداود كرامات فريدة، تناقل الناس أخبارها، ولعلّ مردّ ذلك؛ إلى الأثر الذي تركه الرجل في نفوس مُعاصِريه.

روى صاحب كرامات الأولياء[1] على لسان داود أنه قال: «ماتت امرأة بجواري ولم يكن لها كبير طاعة، فقيل لي: يا داود اطّلع إلى قبرها، فاطّلعت، فرأيت فيه نوراً عظيماً وفرشاً وطيئةً، وسُرُراً عاليةً، فقلت: بِمَ استوجبت هذا؟ فنودِيت! استأنست بنا في سجدتها فأنسناها في وحدتها».

وقال سيف بن هناس الطائي: سمعت أحمد بن شراعة يقول: «كنت أسبل الماء بالليل، فرأيت عند قبر داود الطّائي سِراجاً، قال: فذهبت أنظر إليه فإذا هو قد ذهب، قال: ثم عدت إلى تسبيل الماء فإذا أنا بالسراج، فذهبت فغاب حتى فعل ذلك ثلاثاً، قال: ثم نمت فرأيت فيما يرى النائم كأن إنساناً يقول: لا تسبل الماء عند قبر داود ولا تدنُ منه، قال: فلم أقبل حتى ابتليت، قال سيف: فرأيت به السلّ حتى مات»[2].

٣ ـ تقويم داود من خلال تبجيل العلماء له:

بعد هذه الرحلة مع الفقيه الزاهد داود بن نصَير الطّائي؛ نخلص إلى تقويمه من خلال أقوال الأئمة فيه، وثنائهم عليه وتبجيلهم له.

ولا شك أن داود كان وبشهادة المؤرّخين «رأساً في العلم

(١) النبهاني، ٢/ ٦.
(٢) حلية الأولياء، ٧/٣٥٨ ـ ٣٥٩.

والعمل»[1]، وكذلك كان سيّداً من السادات في الزّهد والعبادة والورع والإخلاص، فهو «عديم النظير زهداً وصَلاحاً»[2].

وفوق ذلك: فقد كان مجلياً في معظم الاختصاصات التي عرفها عصره، قال أبو نُعَيم: «جلس داود مع أهل العربية حتى صار رأساً فيهم، ثم مع علماء القرآن كذلك، ثم مع المحدّثين حتى صار إمامهم، ثم جالَسَ الإمام ـ أبا حنيفة ـ وتفقّه حتى لم يتقدّم عليه أحد، ثم ترك وتخلّى للعبادة حتى صار جبلاً»[3].

وعلى الرغم من الاعتراضات التي قد يوجّهها إليه بعض النقّاد بسبب عُزلته وتركه ميدان العلم والعمل؛ نجد الكثيرين من الأئمة والعلماء يؤيّدون طريقته ويُصوّبون نهجه، فوجدوه مصيباً في كل ما فعله لأنه على الطريق السويّ. فكان الإمام سفيان الثّوري سيّد الحفّاظ إذا ذكره يعظّمه ويقول: «أبصر داود الطّائي أمره»[4]، وأيّد الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك رأي الثّوري فقال: «هل الأمر إلّا ما كان عليه داود الطّائي؟!»[5].

والمُلفِت للنظر؛ أن بعض العلماء وصلوا في تبجيلهم لداود إلى حدٍّ شبّهوه بالأنبياء والصالحين الذين أتى الباري على ذِكرهم في كتابه العزيز، قال محارب بن دثّار: «لو كان داود الطّائي في

(١) أعلام النبلاء، ٧/٤٢٥.
(٢) العِبَر، ١/٢٣٨؛ شذرات الذهب، ١/٢٥٦.
(٣) ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٧.
(٤) حلية الأولياء، ٧/٣٣٦؛ صفة الصفوة، ٣/٨٧، ٩٠؛ أعلام النبلاء، ٧/٤٢٣؛ تهذيب ابن حجر، ٣/٢٠٣.
(٥) كتاب الورع، ص ٥؛ البداية والنهاية، ١٠/١٤٥؛ الجواهر المضيّة، ١/٢٤٠؛ خلاصة التهذيب، ص ٩٤.

الأمم الماضية لقصَّ الله علينا من خبره»[1].

وممّا يدعّم هذه المواقف رأي المؤرّخ شمس الدين الذهبي الذي جعله من بين الأولياء[2]، وقال النبهاني: «هو الوليّ الشهير»[3]، وبشهادة ابن أبي الوفا «هو الإمام الربّاني»[4]. وقد بالغ عبد الله بن داود في تعظيمه للرجل حتى جعله أفضل أهل الأرض جميعاً، فعندما سُئِلَ عن أصحاب أبي حنيفة قال: أبو يوسف، ومحمد بن زُفَر، وداود، وعدد آخرون، ثم قال: «لو أن داود وزن بأهل الأرض لوزنهم فضلاً»[5].

ونظراً لأهمية داود وعلوّ كعبه بين مُعاصريه، وبخاصة العلماء منهم: فقد أصبح مقصد كبار الأئمة وأصحاب المذاهب الفقهية، فعن محمد بن سويد الطائي، قال: «رأيته يغدو ويروح إلى الإمام ـ أبي حنيفة ـ فلما تخلّى للعبادة رأيت الإمام جاءه زائراً غير مرة»[6]، مما يدلّ على أن أبا حنيفة كان يقدّر الرجل ويزكّي مسلكيته في الحياة.

ولعلّ هذا الأثر الجميل الذي تركه داود في نفوس أهل زمانه؛ كان المِدماك الأهم لسرّ خلوده في كتب التراث وفي ضمير الشرفاء من أبناء الأمة.

---

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٥٣؛ تهذيب ابن حجر، ٣/٢٠٣.
(٢) أعلام النبلاء، ٧/٤٢٢.
(٣) جامع كرامات الأولياء، ٢/٦.
(٤) الجواهر المضيّة، ١/٢٣٩.
(٥) ذيل الجواهر المضيّة، ٢/٥٣٦.
(٦) المصدر نفسه، ٢/٥٣٨.

خــــاتمة

من خــلال البحث في تــاريــخ داود الـطّائي تبيّـن لي: أن المصادر التي رجعت إليها، وقد تجاوزت الستّين، كانت، وفي أكثر الأحيان، مُخيِّبة لـلآمال؛ لأن المعلومـات التي عثرت عليهـا جاءت متقاربة إلى حدٍّ كبير، إذا لم نقل إنها كانت متكرّرة ومأخوذة بعضها عن بعض؛ دون أدنى تحليل أو تعليل أو مناقشة. وقـد أثّر ذلـك، بشكـل أو بـآخـر، في الإطـار العـامّ الـذي وضعتـه لـدراسـة هـذه الشخصية، مما جعل طبيعة العمل فيها محيّراً وأكثر صعوبة، إذا مـا قِيسَ ذلك بسائر الشخصيات التي بحثت فيها سابقاً.

أمر آخر كان له تأثيره وزاد في صعوبة العمل ومردّه أيضـاً إلى المصادر الأصيلة، التي لم تُعطِ الرجل حقّه، وتغافلت عن ذكر بعض القضايا الضرورية، التي تساعد على تحديد مـوقع داود الـطّائي بين العلمـاء المعاصـرين له، فهي ـ أي المصـادر ـ لم تـأتِ على ذكـر «قـدراته على الحفظ والإتقـان واستمساك الـذاكرة»، كمـا وأنهـا لم تجـرِ مقارنـة أو «مفـاضلة بينـه وبين مُعـاصِـريـه من أعـلام الفقهـاء والمحدّثين»، وهي أيضاً، لم تعطينا فكـرة ولو مـوجزة عن «حلقـاته العلمية»، ومدى إقبال طلاب العلم لـلأخذ عنـه. ولعلّ مـردّ ذلك؛ إلى أنه لم يكن لداود حلقة خاصّة به أو مجـالس عامـرة بالشيـوخ.

وإنما انتقل فوراً من دور الأخذ عن الإمام أبي حنيفة إلى «العُزلة» التي أحاط نفسه بها. وأما الذين أخذوا عنه الحديث، وهم قلّة، فربما سمعوا منه في جلسات عابرة، أثناء محاورته، حيث كان في جعبة كلٍ منهم العديد من الأحاديث الجِياد.

على كل حال؛ إذا صحّ هذا الرأي، في أنه لم يكن لداود حلقة خاصّة به، عندها يكون لدى المصادر الأصيلة مبرّراتها في عدم ذكر القضايا التي أشرنا إليها سابقاً؛ لأن ذلك كا، يكمل بعضه البعض، فليس من الممكن تحديد قدرات داود العلمية إذا لم يكن قد قام بجولات وصولات في المجالس العامّة والخاصّة، فهذا هو الميدان الأهم الذي تظهر فيه؛ إمكانيات الرجال، ومدى تفوّق بعضهم على بعض، وبالتالي معرفة قدرتهم على الحفظ والإتقان، وسائر الأمور الفكرية.

إن جميع هذه المعطيات تبقى مرهونة بالحَدَث الأهم الذي قلب حياة الرجل رأساً على عقب، وحوّله بالتالي من رجل جسور صاحب أقوى صوت في حلقة أبي حنيفة[1]، إلى شيخ وديع صامت لا يسأل ولا يُجيب، وعلى مدار سنة كاملة[2]. ثم كانت عُزلته الثانية وهي «عُزلته الكبرى» والتي استمرت قرابة العشرين سنة بشهادة ابن سعد[3].

والحديث عن عُزلة[4] الفقهاء الزاهدين حديث ذو شجون،

(١) تاريخ بغداد، ٨/٣٤٨.
(٢) الرسالة القشيرية، ص ١٢؛ تاريخ الإسلام، ٢/١٧٨.
(٣) الطبقات الكبرى، ٦/٣٦٧.
(٤) عن فوائد العزلة، وآفاتها؛ انظر: إحياء علوم الدين، (كتاب آداب العُزلة)، ٢/٢٤٢ وما بعدها.

لأن العُزلة لم يعمل بها بسبب لفت أنظار المعاصرين، ليكونوا موضوع أحاديث الناس في ليالي السَّمَر، وإنما هي حالة اجتماعية مميزة تستحقّ منّا وقفة متأنّية للكشف عن الدوافع التي أدّت إلى ذلك.

والواقعَ؛ أن العُزلة وما يتبعها من عبادة وزهد وورع؛ كانت سائدة في المجتمعات الإسلامية، بسبب التفاوت الكبير بين الطبقات الاجتماعية؛ حيث الأمراء وكبار التجّار يعيشون في القصور المسرفة بأناقتها، ورهط من العلماء والحِرَفيين وصغار التجّار يسكنون في أحياء فقيرة بائسة، الأمر الذي دفع ببعض الناس للرجوع إلى الدين وممارسة الزهد.

وكذلك؛ حبّ الدنيا والإفراط فيه؛ خلق فئة أخرى اختارت الآخرة بعد أن عافت ما شاهدته من فسق وفجور وحبّ الشهوات، فتنكّروا لذلك كله واختاروا العُزلة، وبرأيهم إن النفس إذا نالت ما طمحت إليه تفتّحت أمامها الشهوات ورغبت في ممارسة المحرّمات، لذا فضّل هؤلاء أن يقمعوا نفوسهم ويكبحوا جماحها بغية المحافظة على جوهرها وأصالتها.

وكثيرون اعتزلوا وتزهّدوا تديّناً لأن الزهد يُكسِب الروح شفافية، فيقرّب المرء إلى الخالق عزّ وجلّ، ويسهّل الحساب، لذا؛ صرفوا نفوسهم عن الشهوات، وأكثروا من ذكر الآخرة، ورفضوا أن يمدّوا أيديهم لأخذ عطاء من خليفة أو أمير، وقنعوا بالقليل من المال الحلال، الذي كسبوه بالعمل الشريف أو ورثوه عن ذويهم. ومن هذه الفئة الأخيرة كان الرجل موضوع دراستنا «الفقيه الزاهد داود بن نُصَير الطّائي» الذي كان يقول: «لو أردت هذا الذي يشغل القلب ما سجنت نفسي هٰهنا، إنما طلّقت نفسي

عن هذه الشهوات، وسجنت نفسي حتى يُخرِجني مولاي من سجن الدنيا إلى روح الآخرة»[1].

ولكي ننصف الرجل ولا نغبنه حقّه؛ أجد لزاماً عليّ بعد أن عشت تفاصيل حياته أن أخفّف عنه ما قد يوجّهه إليه النقّاد ورجال الفلسفة وعلم النفس من مآخذ اجتماعية، لعدم عمله بالعلم الذي أخذه عن شيوخه، ومآخذ سياسية لافتقادنا إيّاه وعدم حضوره خلال الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها البلاد الإسلامية آنذاك، في حين كان أستاذه أبو حنيفة في طليعة المُشاركين فيها إلى جانب كبار الفقهاء والمحدّثين. وكذلك ما قد يواجه من انتقادات نفسانية بسبب عُزلته القاسية التي فرضها على نفسه والتي قد يشخّصها البعض بـ «مرض نفساني».

وردّنا على مواقف هؤلاء المنتقدين هو أن معالجة تاريخ الرجال يجب أن يتمّ بموضوعية مخلصة ونزيهة، دون أن نتبنى اتجاهاً معيناً، أو نخطّط لأنفسنا إطاراً محدّداً نؤمن من خلاله بنظرية مسبقة؛ ومن خلالها نفسّر مواقف الرجال، ومنهجيتهم في الحياة وسياستهم تجاه الأحداث السياسية ورجال الحكم، كما علينا أن لا نرى عصراً من العصور بمِنظار الحاضر، أو ندرس الماضي على ضوء مفاهيم الحاضر وانفتاحاته واتجاهاته وأيضاً مشاكله. وهذا يعني أن عُزلة داود الطّائي لم تكن مرضاً نفسانياً، وإنما كانت هي الحلّ الأنسب في مجتمع مريض بالفعل تعيش فئاته في تخبّط مؤلم، وبالتالي كانت فرصة مؤاتية للتخلّي والانسجام مع الذات الإنسانية لكي تتحقّق الحياة الهادئة والنظيفة في ظلّ المدينة الفاضلة.

---

(١) حلية الأولياء، ٧/٣٥١.

وأما بالنسبة للأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها المنطقة، فقد كان داود خلالها قد اتخذ قراره وأعلن عن عُزلته متفرّغاً للعبادة، فكان والحالة هذه، يصعب عليه العودة إلى ميدان العمل وقد عرف الجميع أنه اختار طريقه الذي أنساه كل شيء حتى الأمور التي تجري من حوله، وقد عبّر عن تلك الحالة صاحبه سفيان الثّوري حينما قصده زائراً ولم يهشّ به، فلما اعترض أبو خالد الأحمر على ذلك، قال له الثّوري: «. . . إن أبا سليمان ـ أي الطائي ـ لا يُتّهم في مودّته، أما رأيت عينيه، هذا في شيء غير الذي نحن فيه»[1].

وهنا ينطبق عليه قول الشاعر:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى
كما قَرّ عيناً بالإيابِ المُسافِرُ

وأما بخصوص بُعده عن مخالطة السلاطين ورفضه تولّي مناصبهم وأخذ عطاياهم، فقد كان يسير وفق سُنّة الرسول (ﷺ)، فكان (ﷺ) يقول: «العلماء أُمناء الرُّسُل على عِباد الله ما لم يخالطوا السلطان، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرُّسُل فاحذروهم واعتزلوهم»[2].

ولعلّ داود كان واحداً من جمهرة العلماء الذين ابتعدوا عن السلطان رهبة منه، وقد عبّر أحدهم عن تلك الحالة لمّا قيل له: «لِمَ لا تتقرّب إلى السلطان؟ قال: لأنني رأيته يعطي عشرة آلاف من غير

(١) ثقات العجلي، ص ١٤٩.
(٢) إحياء علوم الدين، ٢/١٥٦.

شيء، ويـرمي من السـور من غيـر شيء، ولا أدري أيّ الـرجلين أكون»[1].

على كل حال؛ إذا كان داود الطّائي قد فاته النزول إلى ساحة العلم والعمل، كما خسر شرف المشاركة في النضال السياسي ـ إذا صحّ التعبير ـ فإنه ولا شك؛ قد ساهم في وضع المِدماك الأول، بل خطا مع الأوائل في طريق الأولياء والصالحين، وهي الـطريق التي سلكها إبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وسليمان الخواص، وتبعهم في ذلك معروف الكرخي، وبشر الحافي، وسريّ السقـطي وغيرهم من أعلام المريدين، الذين ذكرهم السلمي في طبقـاته[2]، والقشيري في رسالته[3].

يضاف إلى ذلك، ما تركه داود الطّائي من تـأثير في النـاس، والـذي استمر عشـرات السنين، فكـان بقـاء سيـرتـه في المجتمـع الإسلامي؛ دليلاً حيّاً على ديمومـة أثره وسـرّ عظمتـه، ويؤكّد ذلـك محمد بن عبيدة الذي سمع أبا جعفر الكندي في جنازة بشر الحافي يقـول شيئاً من خـطبة ابن السمـاك التي نعى فيها داود الـطّائي سنة ١٦٢/٧٧٩، علماً بأن بشر الحافي توفي في سنة ٢٢٧/٨٤٢.

أخلص إلى القـول: إن هذا مجمـل ما تـوصّلت إليـه خـلال رحلتي الـطويلة والشـاقّـة مـع داود الـطّائي، والـذي يـأخـذ بيـدي

---

(١) شهـاب الـدين الأبشيهي، المستـطرف من كـل مسـتظرف، ١/١٠ـ القاهرة؛ بولاق، ١٢٩٢ هـ.

(٢) عبد الرحمن السلمي، طبقات الصّوفيّة، تحقيق نور الدين شربيه، القاهرة جماعة الأزهر للنشر والتأليف، ١٣٧٢/١٩٥٣.

(٣) الرسالة القشيرية.

ويعوّضني ما أطمح إليه، أن هذا البحث المتواضع يعتبر الكتاب الأول الذي يضمّ أخبار داود بن نُصَير الطّائي، بعد أن ظلّت أخباره متناثرة ومطويّة في كتب التراث لقرون عديدة.

وعلى الرغم من ذلك؛ يبقى داود الطّائى أمانة في عنقي؛ يشغل حيّزاً من تفكيري، ويحثّني باستمرار للبحث عن كل ما هو جديد في سيرته، لأعمد، بعون الله، إلى تعديل ما توصّلت إليه، وإضافة ما لم أدوّنه في هذه الدراسة، بذلك أكون قد أدّيت الأمانة لصاحبها الذي وهب حياته خالصة لله عزّ وجلّ.

مـــلاحق الكتاب

ملحق رقم (١) بعض الأحـاديث التي رواهـا داود الـطّائي بسنده عن الرسول (ﷺ)، (مختارة من الحلية، ٣٦٢/٧ - ٣٦٧):

* داود الـطّائي عن عبد الملك بن عميـر عن الحضين بن أبي الحرّ عن سمـرة بن جنـدب قـال: دخـل أعـرابي من بني فـزارة على النبي (ﷺ) فإذا حجّام يحجم لـه من قرن يشـرطه بشفـرة فقال: «هذا الحجم وهو خير ما تداوى به النـاس». صحيح من حـديث عبد الملك، رواه شُعبة بن الحجّاج وغيره[١].

* داود بسنـد صحيح قـال: قـال رسـول الله (ﷺ): «مَن لا يـرحم الناس لا يرحمه الله» صحيح ثابت رواه كثرة من الأعلام[٢].

* داود عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسـول الله (ﷺ): «أتـاكم أهـل اليمن، هم أرقّ أفئـدة وأرقّ قلوبـاً، الإيمـان يمـان، والحكمـة يمـانيـة، والقسـوة وغلظ القلوب في

(١) أخرجه مسلم في «كتاب المساقاة والمُزارعة»، حديث ٦٢، ٦٣.

(٢) أخـرجه التـرمذي في «كتـاب البرّ والصلة»، بـاب ١٦؛ والإمـام أحمـد في المسند، ٢٤١/٢، ٢٦٩، ٤٤٢، ٤٦١، ٥١٤، ٥٣٩، ٤٠/٣، ٣٥٨/٤ - ٣٦٦.

الفـدادين، أصحـاب الإبـل قبـل المشـرق في ربيعـة ومضـر». صحيح من حديث الأعمش مشهور[1].

* داود بسنـد صحيح ثـابت قال: قـال رسول الله (ﷺ): «إن لكـل نبي دعوة مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي». تفرّد به مصعب بن المقدام عن داود[2].

* داود بسنــده عن النـبي (ﷺ) قــال: قــال رســول الله (ﷺ): «تجوّزوا في الصلاة فإن خلفكم الضعيف والكبير وذا الحـاجة». صحيح ثابت عن النبي (ﷺ)[3].

* داود بسنـده عن رسول الله (ﷺ) أنـه قال: «إذا كنتم ثـلاثـة فـلا يتناجى اثنان دون صاحبهما؛ فإن ذلك يُحزِنه». صحيح ثابت من حديث الأعمش[4].

* داود عن الأعمش بسنــده عن رســول الله (ﷺ) قــال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضـل من المؤمن الذي لا يخـالط النـاس ويصبـر على أذاهم». رواه عن الأعمش شعبـة والثوري وزائدة[5].

---

(١) أخرجه البخاري في «كتاب المناقب»، باب ١؛ و«كتـاب المغازي»، بـاب ٧٤؛ و«كتاب الصلاة»، باب ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في «كتاب الدعوات»، بـاب ١؛ و«كتاب التـوحيد»، بـاب ٣١؛ وابن ماجة في «كتاب الزهد»، باب ٣٧.

(٣) أخرجه ابن ماجة في «كتاب إقامة الصلاة والسُّنّة فيها»، باب ٤٨.

(٤) أخرجه البخاري في «كتاب الاستئذان»، باب ٤٥ و٤٧؛ ومسلم في «كتاب السلام»، حديث ٣٦ ـ ٣٨.

(٥) أخـرجه الإمـام أحمد، ٢/٤٣؛ وأبـو داود الطيـالسي في المسند، حـديث ١٢٠٩.

* داود بسنده عن زيد بن الأرقم قال: أتى النبي (ﷺ) رجل فقال: يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون منها ويشربون، قال: «نعم والذي نفسي بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة»، قال: إن الذي يأكل تكون له الحاجة والجنة طيبة ليس فيها أذىً، قال: «حاجة أحدهم عرق يخرج كريح المسك فيضمر بطنه»[1].

* داود عن حميد عن أنس قال: «ما كنّا نشاء أن نرى النبي (ﷺ) من الليل مصلياً إلّا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائماً إلّا رأيناه»[2].

* داود بسنده عن عائشة قالت: «ما ضرب رسول الله (ﷺ) امرأة قطّ ولا خادماً له، ولا ضرب بيده شيئاً إلّا أن يجاهد في سبيل الله. . . » الحديث بكامله[3].

* داود بسنده عن النبي (ﷺ) قال: «نهيتكم عن زيارة القبور فقد أذِنَ لمحمد (ﷺ) في زيارة قبر أمه. . . » الحديث بطوله[4].

---

(١) أخرجه البخاري في: «كتاب الأنبياء»، باب ١؛ و«كتاب مناقب الأنصار»، باب ٥١؛ و«كتاب تفسير القرآن»، باب٦.

(٢) أخرجه البخاري في «كتاب العلم»، باب ٤١؛ و«كتاب الوضوء»، باب ٥ و٣٦؛ و«كتاب التهجّد»، باب ١، ٢٢، ٢٨.

(٣) أخرجه الترمذي في «كتاب البرّ والصلّة»، باب ٦٦؛ والإمام أحمد، ٢٣/٣.

(٤) أخرجه مسلم في «كتاب الجنائز»، حديث ١٠٥ و١٠٨، و«كتاب الأضاحي»، حديث ٣٧؛ وأبو داود في «الجنائز»، باب ٧٥؛ والترمذي في «الجنائز»، باب ٦٠.

* داود بسنده عن أبي هريرة أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: «إذا ارتفعت النجوم ارتفعت العاهة عن كل بلد»[1].

* داود بسنده عن أنس سمع رسول الله (ﷺ) يقول: «يلبّى بعمرة وحجة»، وقال: «لبّيك! عمرةً وحجّةً معاً»[2].

* داود عن الأعمش، عن شقيق، عن عائشة قالت: «ما ترك رسول الله (ﷺ) ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً ولا أوصى»[3].

---

(١) أخرجه أحمد ١/٢١٨.

(٢) أخرجه ابن ماجة في باب «مَن قَرنَ الحج والعمرة»، باب ٢، حديث ٩٨٩.

(٣) أخرجه مسلم في الوصية، باب «ترك الوصية لمَن ليس له شيء يوصي فيه»؛ وأبو داود في الوصايا، باب: «ما جاء في ما يؤمر به من الوصية، وابن ماجة في الوصايا باب: «هل أوصى رسول الله ﷺ؟».

فهـرس المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ المصادر:

* القرآن الكريم.

* الأبشيهي، شهاب الدين أحمد (ت ١٤٤٦/٨٥٠).

١ ـ **المستطرف من كل فن مستظرف**، القاهرة؛ بولاق، ١٢٩٢ هـ.

* ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن إدريس (ت ٩٣٨/٣٢٧).

١ ـ **كتاب الجرح والتعديل**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت. صورة بالأوفست عن ط. دائرة المعارف العثمانية.

* ابن أبي الوفا، عبد القادر القرشي (٧٧٥/ ١٣٧٣).

١ ـ **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، ط ١، حيدر آباد: الدكن، مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٢ (وفي آخره ذيل الجواهر المضية).

* ابن الأثير، عزّ الدين علي بن محمد (١٢٣٢/٦٣٠).

١ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ط. مصر، ١٢٨٥ هـ.

٢ ـ **الكامل في التاريخ**، بيروت: دار صادر، ١٤٠٢/١٩٨٢.

* ابن أعثم الكوفي، أحمد بن عثمان (٣١٤/٩٢٦).
١ ـ **كتاب الفتوح**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/١٩٨٦.

* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧/١٢٠٠).
١ ـ **صفة الصفوة**، بعناية إبراهيم رمضان وسعيد اللحّام، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٩/١٩٨٩.

* ابن حبّان البستي، أبو حاتم محمد (٣٥٤/ ٩٦٥).
١ ـ **كتاب مشاهير علماء الأمصار**، بعناية فلايشهمر، القاهرة: مط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٩/١٩٥٩.

* ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢/١٤٤٩).
١ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، ط. مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٨ هـ.
٢ ـ **تقريب التهذيب**، بعناية محمد عوامة، حلب: دار الرشيد، ١٤٠٦/١٩٨٦.
٣ ـ **تهذيب التهذيب**، حيدر آباد: الدكن. مط. دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٥ ـ ١٣٢٧ هـ.
٤ ـ **لسان الميزان**، ط ٣، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٦/١٩٨٦.

* ابن حنبل، أحمد بن محمد (٢٤١/ ٨٥٥).
١ ـ **كتاب الورع**، دون دار نشر، دون تاريخ.
٢ ـ **المسند**، طبعة القاهرة: ١٣١٣ هـ.

* ابن خلّكان، شمس الدين أحمد بن محمد (٦٨١/١٢٨٢).
١ - **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، د.ت.
* ابن سعد، محمد بن منيع (٢٣١/٨٤٥).
١ - **كتاب الطبقات الكبرى**، بيروت: دار صادر، د.ت.
* ابن شاهين، عمر بن أحمد (٣٨٥/٩٩٥).
١ - **تاريخ أسماء الثقات ممّن نقل عنهم العلم**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/١٩٨٦.
* ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (٧٠٩/١٣٠٩).
١ - **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، بيروت: دار صادر، د.ت.
* ابن عبد ربّه، أحمد بن محمد (٣٢٧/٩٣٩).
١ - **العقد الفريد**، تحقيق أحمدَ أمين والزين والأبياري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٧٢/١٩٥٢.
* ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ (١٠٨٩/١٦٧٩).
١ - **شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب**، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٩/١٩٧٩.
* ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢٧٦/٨٨٩).
١ - **الإمامة والسياسة**، القاهرة: ١٣٢٧/١٩٠٩.
٢ - **عيون الأخبار**، ط ١، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٨/١٩٣٠.
٣ - **كتاب المعارف**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٧.

* ابن قدامة المقدسي، عبد الله بن أحمد (١٢٢٣/٦٢٠).
١ ـ **كتاب التوّابين**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧/١٤٠٧.

* ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (١٣٧٣/٧٧٤).
١ ـ **البداية والنهاية في التاريخ**، بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨١/١٤٠١.

* ابن ماجة، محمد بن يزيد (٨٨٨/٢٧٥).
١ ـ **كتاب السُّنن**، طبعة القاهرة، ١٣١٣.

* ابن الملقن، سراج الدين عمر بن علي (١٤٠٢/٨٠٤).
١ ـ **طبقات الأولياء**، تحقيق نور الدين شربيه، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

* ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم (١٣١٢/٧١١).
١ ـ **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، دار بيروت، د.ت..

* ابن النديم، محمد بن إسحٰق (٩٩٥/٣٨٥).
١ ـ **كتاب الفهرست**، بيروت: دار المعرفة، د.ت..

* ابن يزيد، أبو عبد الله محمد (٨٨٦/٢٧٣).
١ ـ **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد الحافظ، ط ٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦/١٤٠٦.

* أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث (٨٨٨/٢٧٥).
١ ـ **كتاب السُّنن**، طبعة القاهرة، ١٢٨٠ هـ.

* أبو داود الطيالسي، سليمان بن داود (٨٢٠/٢٠٤).
١ ـ **المسند**، طبع حيدر آباد، ١٣٢١ هـ.

* أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (٤٣٠/١٠٣٩).
١ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠/١٩٨٠.
* الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦/٩٦٧).
١ ـ **مقاتل الطالبيين**، تحقيق السيد أحمد صقر، بيروت؛ مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٧/١٤٠٨.
* البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٥٦/٨٧٠).
١ ـ **كتاب التاريخ الكبير**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
٢ ـ **صحيح البخاري في (شرح فتح الباري)**، القاهرة: بولاق، ١٣٠١ هـ. وطبعة بيروت: دار الجيل، د.ت..
٣ ـ **صحيح البخاري**، طبعة ليدن، ١٨٦٢ـ ١٨٦٨ و١٩٠٧ ـ ١٩٠٨.
* البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩/٨٩٢).
١ ـ **فتوح البلدان**، بعناية رضوان رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨/١٣٩٨.
* الترمذي، محمد بن عيسى (٢٧٩/٨٩٢).
١ ـ **كتاب السُّنن**، طبعة بولاق، ١٢٩٢.
* الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٣/١٠٧١).
١ ـ **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت..
* الخزرجي، صفيّ الدين، أحمد بن عبد الله (٩٢٣/١٥١٧).
١ ـ **خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٢٢.

* خليفة بن خياط، أبو عمرو الملقب شباب العصفري (٢٤٠/٨٥٥).
١ ـ **كتاب التاريخ**، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف: مطبعة الآداب، ١٣٨٦/١٩٦٧.

* الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢/٨٩٥).
١ ـ **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيّال، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.

* الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (٧٤٨/١٣٤٨).
١ ـ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٧/١٩٨٧.
٢ ـ **تذكرة الحفّاظ**، بيروت: دار الكتب العلمية، صورة بالأوفست عن طبعة حيدر آباد، ١٣٧٥/١٩٥٥.
٣ ـ **دول الإسلام**، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٥/١٩٨٥.
٤ ـ **سير أعلام النبلاء**، مجموعة من المحقّقين، بإشراف شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ٤، ١٤٠٦/١٩٨٦.
٥ ـ **العِبَر في خبر مَن عَبَر**، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيّد، الكويت: دائرة المطبوعات والنشر، ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣.
٦ ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرِجال**، تحقيق علي محمد البجاوي، ط ١، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٣.

* الرازي، محمد بن أبي بكر (بعد ٦٦٦/١٢٦٨).
١ - **مختار الصحاح**، تحقيق لجنة من العلماء، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٠١/١٩٨١.

* السلمي، محمد بن الحسين (٤١٢/١٠٢١).
١ - **طبقات الصّوفيّة**، تحقيق نور الدين شربيه، القاهرة، جماعة الأزهر للنشر والتأليف، ١٣٧٢/١٩٥٣.

* السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١/١٥٠٥).
١ - **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمد عبد الحميد، ط ١، القاهرة: ١٣٧١/١٩٥٢.
٢ - **طبقات الحفّاظ**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣/١٩٨٣.

* الشعراني، عبد الوهاب (٩٧٣/١٥٦٥).
١ - **الطبقات الكبرى**، المسمى «واقع الأنوار في طبقات الأخيار»، القاهرة: المطبعة الشرقية، ١٢٩٩ هـ.

* الشيرازي، أبو إسحٰق (٤٧٦/١٠٨٣).
١ - **طبقات الفقهاء**، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٧٠.

* الصفدي، خليل بن أيبك (٧٦٤/١٣٦٣).
١ - **الوافي بالوفيات**، جـ ١٥، باعتناء بيرتدرانكة، فيسبادن: فرانزشتايز، ١٣٩٥/١٩٨٣.

* الطبري، محمد بن جرير (٣١٠/٩٢٣).
١ - **تاريخ الأمم والملوك**، بيروت: مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٣/١٩٨٣.

* الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد (١١٢٦/٥٢٠).
١ ـ **سراج الملوك**، الإسكندرية: المكتبة الوطنية، ١٢٨٩ هـ.

* الطوسي، محمد بن الحسن (١٠٦٧/٤٦٠).
١ ـ **رجال الطوسي**، ط ١، النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٦١/١٣٨٠.

* العجلي، أحمد بن عبد الله بن صالح (٨٧٤/٢٦١).
١ ـ **تاريخ الثقات**، باعتناء عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٤/١٤٠٥.

* الغزالي، أبو حامد محمد (٥٠٥/ ١١١٢).
١ ـ **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦/١٤٠٦.

* القشيري، عبد الكريم بن هوازن (١٠٧٣/٤٦٥).
١ ـ **الرسالة القشيرية في علم التصوّف**، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.

* الماوردي، علي بن محمد (١٠٥٧/٤٥٠).
١ ـ **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٨/١٣٩٨.

* المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (٨٩٨/٢٨٥).
١ ـ **كتاب الكامل في اللغة والأدب**، بيروت: مكتبة المعارف، د.ت.

* مجهول . . .
١ ـ **العيون والحدائق في أخبار الحقائق**، من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم، تحقيق (de Goeje)، ط بريل، ١٨٧١ .
* مجهول . . . (المؤلّف من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) .
١ ـ **أخبار الدولة العباسية**، وفيه أخبار العباس وولده، تحقيق عبد العزيز الدوري وعبد الجبار، بيروت، ١٩٧٢ .
* المسعودي، علي بن الحسين (٩٥٧/٣٤٦) .
١ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت: دار الأندلس، ١٩٧٣ .
* مسلم، بن الحجّاج النيسابوري (٢٦١/٨٧٤) .
١ ـ **صحيح مسلم**، طبعة بولاق ١٢٩٠ .
* المناوي، عبد الرؤوف (١٠٣١/١٦٢٢) .
١ ـ **الكواكب الدرّيّة في تراجم السادة الصوفية**، باعتناء محمود حسن ربيع، القاهرة: مطبعة الأنوار ١٩٧٨/١٣٥٧ .
* النووي، أبو زكريا محي الدين بن شرف (٦٧٦/١٢٧٧) .
١ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**، تحقيق فرديناند وستنفلد، غوتينغن، ١٨٤٢ ـ ١٨٤٧ .
* اليافعي اليمني، عفيف الدين، عبد الله بن أسعد (٧٦٨/١٣٦٧) .
١ ـ **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان**، تحقيق عبد الله الجُبُوري، ط ١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤ .

* ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (٦٢٦/١٢٢٩).
١ ـ **معجم البلدان**، بيـروت: دار بيـروت ـ صـادر ١٩٥٥ ـ ٥٧.

* اليعقوبي، أبو يعقوب أحمد بن واضح (٢٨٤/٨٩٧).
١ ـ **تاريخ اليعقوبي**، بيروت: دار صادر ١٣٧٩/١٩٦٠.

٢ ـ المراجع:

أ ـ المراجع العربية:

* الحاجّ علي، عصام.
١ ـ **الإمـام سفيان بن سعيـد الثوري «سيّـد الحفّاظ»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢/١٩٩٢.
٢ ـ **الإمام سفيان بن عُيينة الهلالي «محـدّث الحرم المكّي»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٤/١٩٩٣.
٣ ـ **الإمـام شُعبـة بن الحجّـاج الأزدي «سيّـد المحـدّثين»**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣/١٩٩٣.
٤ ـ **الإمام المجاهد عبد الله بن المبـارك**، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١/١٩٩٠.

* الزركلي، خير الدين.
١ ـ **كتاب الأعلام**، ط ٦ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.

* عمر، فاروق.
١ ـ **طبيعة الدعـوة العباسيـة**، ط ١، بيروت؛ دار الأنـدلس، ١٣٨٩/١٩٧٠.

* ماجد، عبد المنعم.
١ - **التاريخ السياسي للدولة العربية**، ط ٣، بيروت: مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٦.
٢ - **العصر العباسي الأول، التاريخ العباسي**، ط ٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩.
* النبهاني، يوسف بن إسماعيل (١٣٥٠/١٩٣٢).
١ - **جامع كرامات الأولياء**، بيروت: دار صادر، د.ت.

ب - المراجع المعربة:
* فِنسِنْك، أ. ي.
١ - **مفتاح كنوز السُّنّة**، نقله إلى العربية، محمد فؤاد عبد الباقي، مركز النشر في مكتب الإعلام الإسلامي ١٤٠٤ هـ.

جـ - المراجع الإفرنجية:

1 - Encyclopédie de l'Islam.

فهـــرس الكتاب